

اليد واللسان

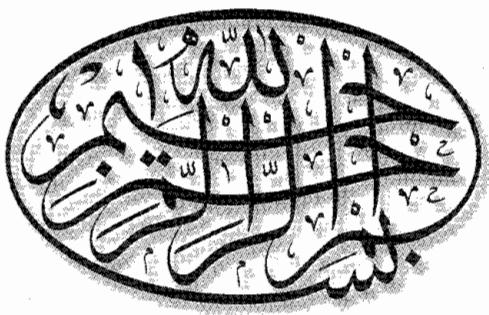
القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة

العجلة العربية

رئيس التحرير
د. عثمان بن محمود الصيني

الرياض - طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطى
هاتف: 4779792 - 4778990 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com - info@arabicmagazine.com



الإٰهداء

إلى الروح الطاهرة محمد السليم

المجلة العربية 1431هـ

ح

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغذامي، عبدالله محمد

اليد واللسان: القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة.

١ عبدالله محمد الغذامي - الرياض ، 1432هـ

١٦٠ ص، 21x14 سم

(سلسلة كتاب المجلة العربية، ١٧٢)

ردمك: ٩٧٨_٦٠٣_٨٠٨٦_٠٠_١

١ - الأدب العربي - نقد - السعودية العنوان

1432/2606 810.99531 دبوی

رقم الإيداع: 1432/2606

ردمك: 978_603_8086_00_1

الكتاب

مقدمة

7

الفصل الأول:

القراءة: مفاهيم أولية

15

الفصل الثاني:

رأسمالية الثقافة: الأكثر مبيعاً

43

الفصل الثالث:

الأمية: سؤال آخر

82

الفصل الرابع:

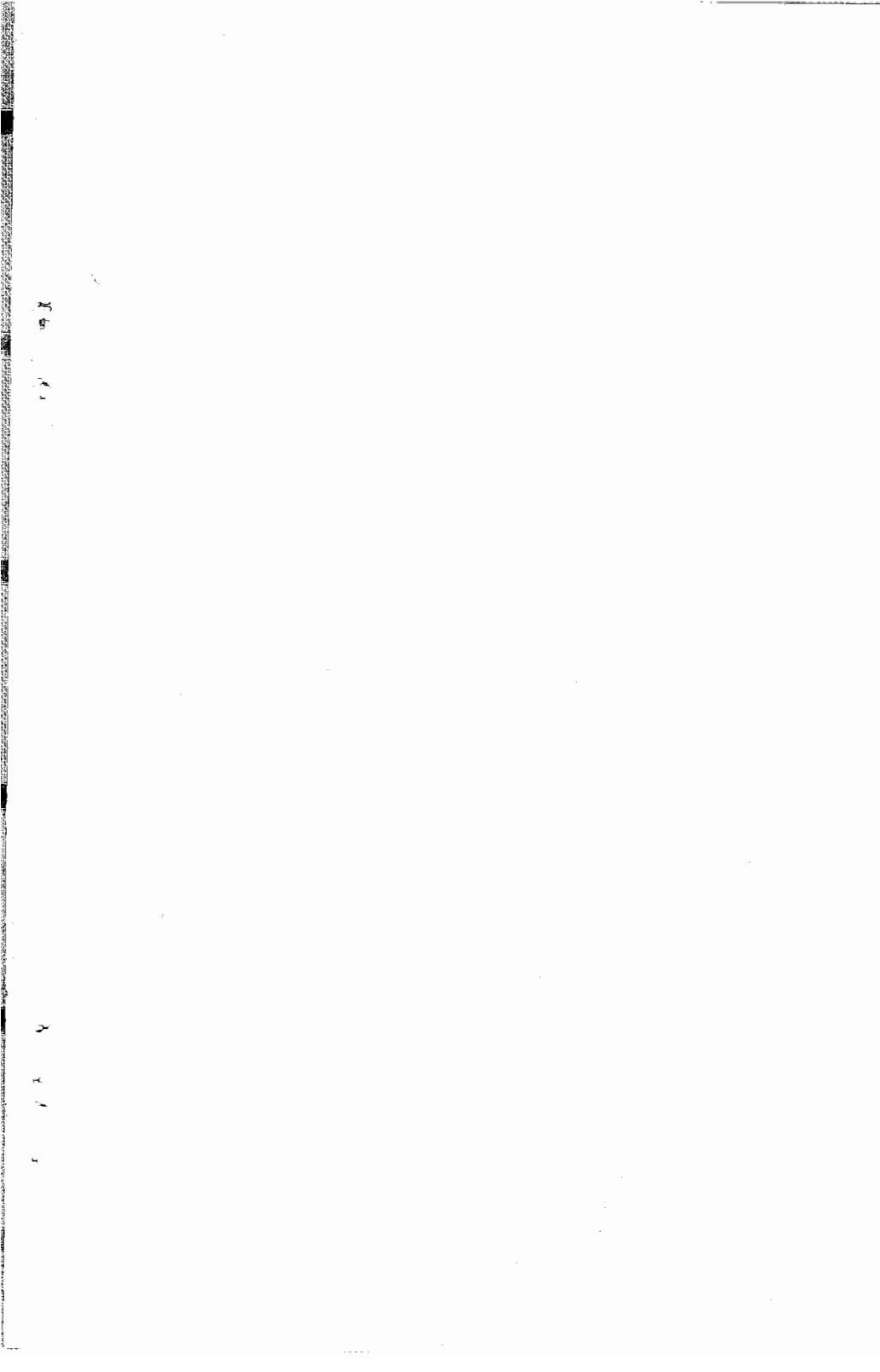
حكايات الكتاب

107

ملحق

لوحات ديريدا والتمرکز المنطقی

144



المقدمة

اليد واللسان

كان المنظر مرعباً، وقد وقع في إحدى قرى منطقة سدير، وكان ذلك في فترة تاريخية تقع بين عهدين من عهود الدولة السعودية أو هو عقب سنين سقوط الدولة الثانية، وهو حادث واقعي وأوحش ما فيه واقعيته المرعبة، وكان ذلك في أحد الكتاتيب حيث أمر المعلم واحداً من التلامذة بأن يمسك باللوح لكي يشرع في تعليمه الكتابة، وما أن قال المعلم ذلك حتى تفاجأ الجميع بأن الولد يحمل نفسه ويفر خارج الكتاب، وهو يصرخ ويجري بسرعة مذهلة وكان يتبدى عليه الذعر وجسده كله يتنفس وقد احمر جلده وجحظت عيناه، وغاب عن الدراسة أسبوعاً، وبعد أن حضر الولد ثانية حاول المعلم توجيهه للوح الكتابة فتكررت حالة الرعب عنده، وفر مرة أخرى مخلفاً الهلع والتخوف بين زملائه، وهو يكرر التصرف للمرة الثانية، وفي هذه المرة أخذ الطلبة وبعض المتطوعين من تكرر الموقف أمامهم، أخذوا بالركض وراءه، وظل هو يعود ويلتفت من خلفه وكلما رأهم يتبعونه بالجري زاد من سرعته ولم يجدوا بدأً من زيادة سرعتهم للحاق به، وكان من عجبهم أن لا أحد يعرف هذا الطفل فعلاً ولا أحد يعرف أين مسكنه ولا ما هي وجهته الهارب إليها، ولكنهم تابعوا مرآه

من بعيد وتوسلوا بالتعرف على وقع أقدامه على الأرض لكي تقودهم
أبصارهم إلى مسالك الدرب، إلى أن وصلوا إلى غرفة منعزلة على طرف
القرية بإزاء بستان صغير، وهناك أطلوا على داخل الغرفة ليروا رجلاً
مسناً، وشاهدوا يده اليمنى مقطوعة، ومن حوله الطفل وقد تطوى
عليه وهو يصرخ وينتفض ويتصبب عرقاً، حتى لقد كان وجيف قلبه
يصل إلى مسامعهم وكأنما يرون عروقه وهي تتفجر بالدماء الحارة
والمرتبعة منهم.

لم يطل بهم التساؤل إذ أشهر الرجل يده اليمنى في وجوههم، وقال
لهم: لا تعجبوا من تصرف ولدي، فهذه يدي تروي لكم سر مخاوفه،
وراح يروي لهم أنه رجل لديه شيء من العلم وكان يسعى إلى كتابة
التاريخ، وشرع فعلاً في ذلك حيث بدأ يسجل أحداث زمانه وما يمر
بالبلاد من أسواء وأهواه، وما لبث والي البلاد حينها أن اكتشف فعلة
هذا الرجل في تسجيله التاريخ وسرده لأفعال هذا الوالي وأعوانه بالناس
في تلك البلدة، فما كان من الوالي إلا أن قطع يد الرجل كي يمنعه من
الكتابة، وظل الرجل يعيش مأساته، ويقدم يده المقطوعة شاهدة على
ما جرى له.

هذه هي الصورة والقصة المرعبة التي تسببت في ذعر الطفل من
منظر اللوح والقلم، وهو الرعب الذي يوحي له بقطع اليد، وكان
يتمنى دراسة لا تحتاج إلى كتابة، وعلمًا لا يحتاج إلى لوح وقلم، على أن
تبقى له يده كاملة ويبقى له سائر جسده دون قطع.

جرى ذلك وصار فعلًا في فترة من تاريخ منطقة نجد حينما سادت الفوضى بعد سقوط الدولة السعودية الثانية، وقد سمعت القصة يرويها الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري -رحمه الله- ويفكّد على حدوثها وواقعيتها.

وهي قصة تاريخية تتكرر على مدى التاريخ كله، وإن بصيغة متنوعة، وفي القديم الجاهلي كانت قصة عبديغوث الحارثي وكان رأس قومه وشاعرهم، ووقع مرة في الأسر وخاف آسروه من قصائده، فما كان منهم إلا أن ربّطوا لسانه بنسعة نعل، أي بخيط من الخيوط التي تحاك بها النعال، وهم إذا ربّطوا لسانه فإنهم يسلّمون من تحرك هذا اللسان بالأشعار، ولو تحرّكت الأشعار لقالت وفضحت وستسري بها الروايات، وقصة هذه الحادثة مروية بتفاصيلها بقصيدة عبديغوث الحارثي الشهيرة (ألا لا تلوماني كفى اللوم مابيا)، وهي من عيون قصائد العرب وإحدى مختارات المفضل الضبي في كتابه المفضليات، ومنها بيت القصيد الذي يقول:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة

أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

ولقد جرى هذا في زمن الشفاهية حيث لم تكن اليد تكتب، ولو كانت يد الشاعر تكتب حينها لجرى له ما جرى للمؤرخ النجدي وقطعوا يده.

تلك ممارسة قديمة ومستمرة، ونحن اليوم نسمع عن اتفاق

تارخي سموه ميثاق الشرف الإعلامي، وهو ميثاق فيه تقنين لليد واللسان وتلويع بقطعهما فيما لو تجاوزاً الحدود، مثلما يجري في منع بعض الفضائيات والصحف وحجب الكتابات ومصادر حرية التعبير والتفكير، هذا في الشرق ولن ترى الغرب سليمانًا من هذا أيضاً إذ يضعون قانوناً أساسياً حول سرية المعلومات، ولا تباح السرية إلا بعد مرور ثلاثة سنّة عليها مع شرط زوال أسباب السرية، وإن لم تزل ضلت مشروطة بالكتمان، ومن خالفها عوقب معاقبة قانونية تشبه قطع اليد، وإن بصيغة مجازية.

تلاف الثقافات من اليد واللسان إذا تعلمتا كسر السر، وكان طرفة بن العبد قد دفع ثمناً باهظاً لقاء طول لسانه، وقد حذرته حاله حينما رأى له لساناً مشاغبأً، وقال له كلمته المشهورة: «ويل لهذا من هذا»، مشيراً إلى رأسه وإلى لسانه، وهذا ما حدث فعلاً، حيث انتهت طرفة مقطوع اللسان والرأس من سلطان زمانه. وكانت العرب تقول في أمثالها: «من ألف فقد استهدف»، أي صار هدفاً وقدم يده ولسانه وأسممه أهدافاً من يلوكها بالقطع الحسي أو المعنوي. ونحن نشهد عصر الإنترت وكيف يجري سلح أي إنسان يتجرأ على قول غير متفق عليه، أي أنك بين حدي سكين أحدهما سلطوية رسمية وثانيهما سلطوية شعبوية وفنوية، وأنت واقع في إحدى السلطتين غالباً، ومن ذلك التخوين والتکفير والتسفيه، ولكل واحد من هذه الثلاثة صيغته وسماته ونظامه اللفظي والسلوكي. وكلها صيغة نسقية

تقطع اليد أو اللسان أو الاسمية حيث تضع اسم المخالف والمختلف في خانة المستهتر به لكي تجري تصفية مقامه ومنع قدراته التأثيرية. ولقد كانوا سابقاً يخافون من سطوة الشاعر ولذا حذرهم المتنبي بقوله: «وعداوة الشعراء بئس المقتني»، ومن قبله كان الفرزدق يفتک بخصوصه النحويين وقد قال بيته الشهير:

«ولو كان عبدالله مولى هجوته / ولكن عبدالله مولى مواليها»، وكل ذلك لأن ذلك النحوي أشار إلى خطأ لغوي وقع فيه الفرزدق فجاءه التعنيف السلطوي لفظياً، ولو كان الفرزدق حاكماً لقطع لسان النحوي أو فقاً أذنيه كيلا يسمع الشعر الملحون.

هناك نازع ثقافي باتجاه الرأي الواحد والصوت الواحد والرأس الواحد فكريياً واجتماعياً وسياسياً، وكل حالة اختلاف هي حالة مرؤقة، وظل اللسان في زمن الشفاهية هو مصدر الخطر وهو الخط الأحمر، ثم جاءت ثقافة الكتابة لتجعل اليد هي القيمة الثقافية المشاغبة، واليوم جاءت الآلة الجديدة، التي هي (لوحة المفاتيح) لن تكون إضافة أخرى للآلتين التقليديتين، اليد واللسان، وفي هذه الأدوات تكمن الألاعيب كلها، لعبة التغالب والتکالب، ففي الوقت الذي يكون اللسان أداة لحرية التعبير فإنه أيضاً أداة للتسلط ومثله الكتابة ومثلهما لوحة المفاتيح، وفي كل منها أبواب للقول والكشف والنقد من جهة، مثلاً فيها أبواب للقمع والعدوان اللفظي والثقافي. والذي يظل دائمًا ويبقى هو قدرة الإنسان على اكتشاف سبل التعبير واختراع حيل لا حصر

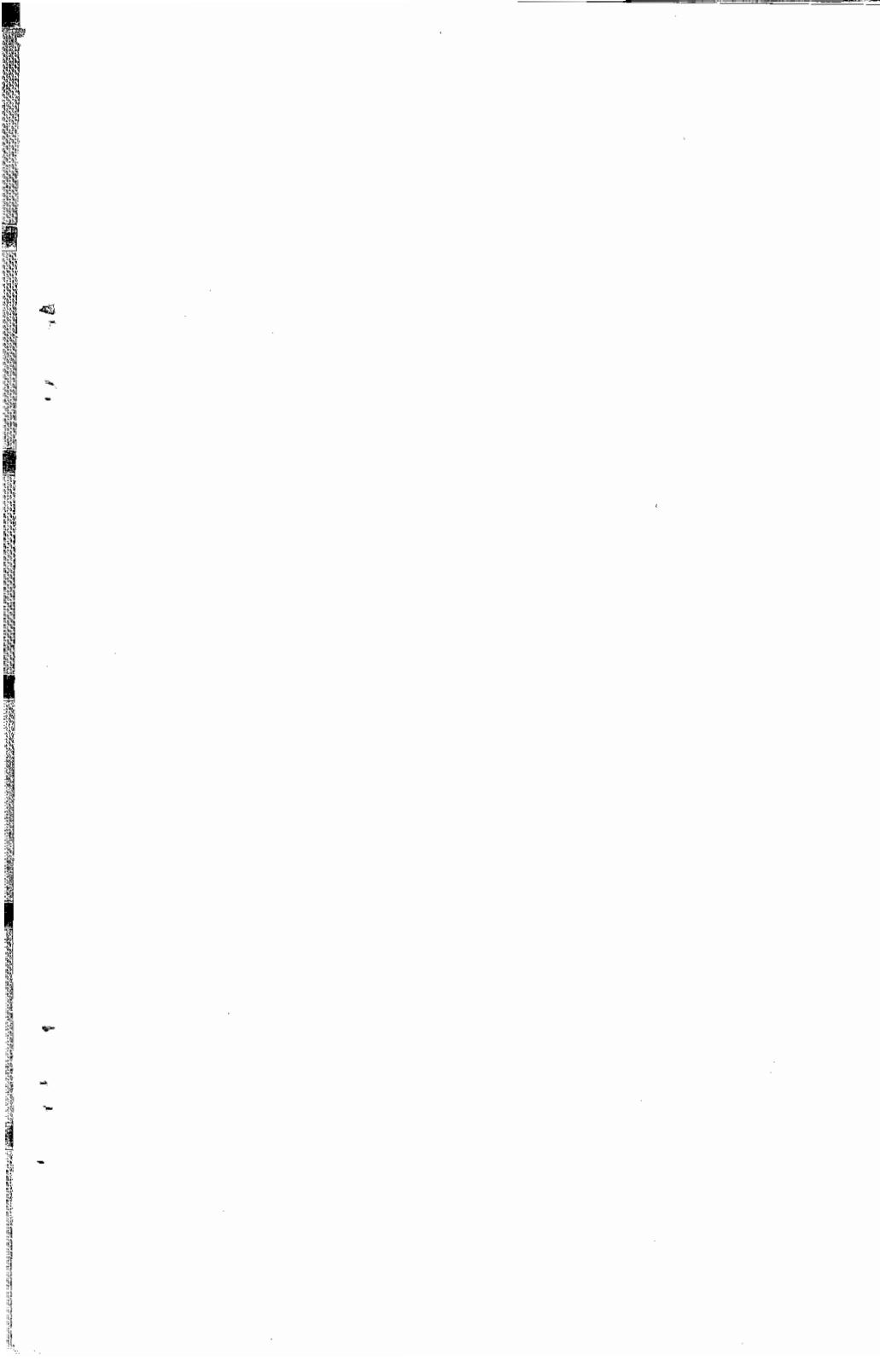
لها في ذلك، حتى ليكتب بدمه إذا استعصت عليه الأقلام، وحدث ذلك كثيراً للسجناء ولأناس ماتوا بعد أن سجلت دمائهم قصتهم وكشفت قتلتهم، مثلما ماتت أيادٍ كثيرة وألسنة كثيرة من قبل سائر أعضاء أجساد أصحابها لأنها نطقت بالمنوع. ولا شك أن أهم تواريχ الثقافة هي قصص المواجهة بين القامع والمقموع، ولقد اختار هاملت في مسرحية شكسبير أن يقصص صورة الجنون كي يقول ويفضح مؤامرات القتلة تحت لغة الجنون فيسلم بجسده بدعوى أنه لا يعقل ما يقول، ولكنه في الوقت ذاته أخرج السر من جوفه وخفف ضغط الضمير عليه.

وتظل اليد واللسان كائنين حيوانيين لهما قدرة على فعل الشيء ونقضيه، منفصلين حيناً ومترابطين حيناً آخر.

وفيما يلي مجموعة من المقالات حول القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة كانت قد ظهرت تباعاً في ملحق جريدة الرياض الثقافي على عدد من الحلقات في أواخر العام 2009 حتى منتصف 2010م.

الفصل الأول

القراءة: مفاهيم أولية



نقرأ / لا نقرأ

- ١ -

هل نحن حقاً أمة لا تقرأ؟!

هكذا جاء السؤال بداية^(١)، وهو سؤال يقوم على الفرضية ونقضها، فهو يجمع بين الشك واليقين، مبتدئاً بالشك حيث يقول: هل نحن حقاً، وكلمة (حقاً) هنا تقدم إحساساً أولياً بالشك من صحة ما سيأتي بعدها، والآتي هو الافتراض أننا أمة لا تقرأ. وإنني لأحيي هذه الصياغة وبهذه الطريقة للسؤال، حيث أنني سبق أن أعلنت مراراً ترددت عن قبول الدعوى الشائعة التي تقول إن العرب لا يقرؤون، وهي الدعوى التي تم تكرييسها بأن العرب لا يقرؤون ويجري الانسياق وراء قطعية المقوله، ومن هنا تأتي عندي الفرحة بما أوحي به هذا السؤال المطروح هنا حيث وضع الفرضية بين حدي الشك واليقين مقدماً الشك، مما يفتح المجال للمناقشة ومحاورة الفكرة، وهي فكرة سيكون نقاشي لها منصبأً على الشك في صحتها، وهذا ما سترطرحه مداخلتي هذه.

ولسوف أدخل للموضوع عبر طرح أسئلة عدة هي:

أ - ما القراءة؟

(١) كان الموضوع مقتراً من مؤسسة الفكر العربي ، وقد جرى طرحه في مؤتمر المؤسسة في بيروت ٢-٣ أكتوبر ٢٠٠٩ .

ب - ما المقصود؟

ج - ما العلاقة بين القراءة والثقافة...؟

تلك قضائيا لا بد من التبصر بها قبل الجزم بالإجابة عن السؤال المطروح، ولسوف أبادر وأقول إن تصور هذه الأسئلة سيعزز الشكوك في الفرضية وربما يلغيها أو في الأقل يزيح قطعية الفرضية و يجعلها في حدود المتسائل عنه لا المقطوع به.

- 2 -

ما القراءة (والاذن لقرأ)؟

يجب هنا ألا نغفل أن ما نسميه بالقراءة هو مجرد وسيلة إرسال واستقبال، والكلمة المكتوبة على الورق هي تصوير للمنطق، وهي صورة تحول الكلمة من صوت مسموع إلى رسم منقوش، وهذا تغيير في صيغة الإرسال، وبدلاً من أن أقول إنني جائع بصوتي وعبر حنجرتي فإني أستعين بورقة وقلم وأكتب الجملة بدلاً من نطقها، ولا شك أن نجاح هذه العملية لكي تصل إلى الطرف المستقبل يحتاج إلى شرطين أحدهما أن تكون له عين مبصرة ترى الصورة المرسومة على الورق، والثاني أن يكون قادرًا على فك العلامة المرسومة ويعرف قراءة الكلمات. وهنا سنقول إن المعري مثلًا وطه حسين لن يتمكنا من ذلك، كما أن امرأ القيس سيعجز عن استقبال هذه المعلومة مع اختلاف السبب. وهذا

مثال بسيط وواضح، وأوضح منه هو أن نتذكر أن القراءة هنا ليست سوى وسيلة إرسال واستقبال، وأي وسيلة في الدنيا لا تكون غاية في ذاتها، وسيحل غيرها محلها لأداء المهمة، وهذا ما جعل المعري وطه حسين ومن قبلهما امرؤ القيس يملكون ثقافة راقية مع فقدانهم لوسائل القراءة وعدم تمكّنهم منها، مما يعني أن القراءة هي مجرد صيغة من صيغ التفاعل وليس تفاعل هي سر التفاعل ولا تصنع قيمته ولا تفترض خطورته في حال غيابها، والمسألة ليست مسألة أفراد وعيّنات بشريّة محصورة بل هي علامة ثقافية أكبر من أن ننساها أو نتناساها، فالآداب العظمى في التاريخ كلّه تحدّرت وتناسلت عبر الرواية والمشافهة والحفظ، مثلاً تحدّرت عبر الورقة والمخطوطات، وليس هذا سوى افتراض أولى ولكنه افتراض كاذف وبنّوي.

ولنا أن نراجع المصطلحات التالية: يسمع / يقرأ / يبصر. وهي مصطلحات ثقافية بعيدة العمق والرمزية، وكل واحد منها يمثل حالة من حالات التكوين الحضاري البشري تاريخياً وواقعاً، حيث الكلمة (يسمع) تعبر عن الثقافة السمعية والشفاهية، في حين (يقرأ) تمثل مرحلة الكتابة والكتاب، وتتلّوها (يبصر) التي تمثل مرحلة الثقافة البصرية ومرحلة زمن الصورة، وهو زمننا الحالي. وإن كنا نرى أن زمن الشفاهية هو زمن قديم فإن بعضـاً مما سيقول اليوم إن زمن الكتاب قد صار أو هو على مشارف الانضمام، وإن كنت لا أقول ذلك فعلاً ولا أراه سيقع حقيقة، إلا أنني أرى أن القراءة ليست سوى صيغة

واحدة من صيغ ثلاثة تمثل وسائل التثقيف والاستقبال، وكلها وسائل كبرى ومفعوليتها عالية جداً ومتقاربة المفعولية أيضاً. ولن نجد صعوبة في أن نقول: إن الأذن تقرأ في حالة رجل مثل طه حسين، وفي حالة أمة كاملة سلف بعض منها ويعيش من حولنا خلق كثير لما ينزل ذلك، ومثله من يقرأ عبر الصورة حيث تكون الصورة كتاباً وقد نراها أهم وأخطر من الكتاب. وهذا يجعلنا نعيد تصورنا لمعنى القراءة ولا نحصره بالكتاب وقدرأينا اتساع مجاله وتعدد مفهومه ومفعوليته.

- ٣ - ما المقصود؟

لكي نخطط طريقنا للتصور الافتراض حول هذه الأمة التي تقرأ (أو لا تقرأ) يجب أن نستعرض الواقع العملي حول المادة المقرؤة حسب التجارب المشاهدة، وهنا نستعرض أربع حالات لما نراه مادة مقرؤة، وهي:

- أ - الكتاب الديني.
- ب - التحليل الرياضي.
- ج - المادة الفنية الفنائية والتمثيلية تحديداً.
- د - كتب الغبيات.
- ه - كتب الشعر الشعبي.

ويقابل ذلك سلباً كتب الفلسفة النظرية والكتب العلمية والأكاديمية وبعض صيغ الإبداع خاصة الإبداع الشعري الذي تراجع بصورة خطيرة.

ونحن إذا وضعنا هاتين المجموعتين أمام أعيننا فسنقول بوضوح
قاطع إن المجموعة الأولى مقروءة وهي منتشرة على شاكلة كتب
ورسائل ومنشورات صحفية، بل إن الصحف تتسلل بالرياضية والفن
ومربعات التنجيم من أجل تنشيط المبيعات.

هذا يجعلنا نقول إن هناك نشاطاً قرائياً في بعض الشؤون ويقابلها
ركود قرائي في شؤون أخرى، وهنا يتحتم تعديل الفرضية، لنوجهها
نحو النوعية المقروءة بدلاً من كونها سؤالاً عاماً عن القراءة.
ولسوف نرى أن العرب يقرؤون ولكن السؤال هو عن نوعية المقروء،
خاصة إذا عرفنا أن كتاباً مثل كتاب (لاتحزن) مؤلفه الشيخ عايض
القرني قد باع أكثر من ثلاثة ملايين نسخة في فترة وجيزة، وهي
إحصائية شملت مصر واليمن والأردن ومنطقة الخليج العربي، بينما
توقف دواوين أدونيس عند أعداد محدودة وضيقية، والأمر هنا هو في
خيارات ثقافية للجمهور، مما يجب أن يكون موضع سؤال وتفكير.
سنظل في هذه الورقة نقول إننا أمام سؤال عن نوعية المقروء ولستنا
أمام سؤال عن القراءة بشكل مطلق.

- 4 -

ما العلاقة بين القراءة والثقافة؟

إن سؤال العلاقة فيما بين القراءة والثقافة هو سؤال يمس
المتغيرات المعرفية على مستوى ما يراه المجتمع ثقافة وما يراه

ضروريًا، وما هو عكس ذلك، ولا شك أننا مررنا بزمن كان الشعر فيه هو العلامة الثقافية الأكبر، وكان من دين الخلفاء الأمويين والعباسيين تربية أبنائهم على لغة الشعر وذائقه الشعر والأخلاقيات الشعرية، وكانت ثقافة الدواوين العليا لل الخليفة وللوزراء والوجهاء هي الشعر، استماعاً للمديح أو رواية للقديم، أو تطريباً بالشعر -كما هي شهادة كتاب الأغاني-، وهذا عزز مكانة الشعر كعلامة ثقافية، وورثنا نحن هذا المعنى حتى صار المعهود الثقافي أن من يحفظ المعلقات وحكم زهير والمتني والمعربي، ثم أخيراً حفظ شعر شوقي هو المثقف، وكان ذلك علامة ثقافية يحرص من يملكتها على إظهارها كاستعراض ثقافي لافت. غير أن الأمر تغير الآن ولم تعد هذه السمة علامة ثقافية، ويندر أن تراها بين الجيل الشاب، ولم يعد الشعر علامة ثقافية مثلاً كان من قبل. ومع تراجع مقام الشعر تراجعت مقامات ثقافية أخرى من مثل النقد ونظرياته ومعها الأساليب البلاغية والخطابية، وتبعتها خطابات أخرى تماثلها في التكوين والتبويب، وهذه كلها أصابها نوع من التراجع في التسويق والشيوخ حتى وصلت إلى مراحل مخيفة في ضيق دوائرها. وفي مقابل ذلك حلّ خطابات أخرى لتكون في صدارة الاهتمام والاستهلاك اليومي السريع، وجاءت فكرة الأفضل مبيعاً كاستجابة لمتطلبات السوق الثقافية، ومن أهم شروطها السهولة وال المباشرة والصراحة، وكل

خطاب اجتماعي أو سياسي أو ديني ينطوي على شروط الصراحة وال مباشرة والسهولة يجد صداه بسرعة فائقة، وسنرى أن هذه هي سمات ثقافة الصورة - كما سنحددها لاحقاً في هذه الورقة -. وهذه مسألة تمس المتغيرات المعرفية والذوقية في حياة البشر وعلاقات التواصل في داخل المجتمعات وفيما بين الفئات.

لقد تعزز بشكل أو بآخر مفهوم ثقافي عام وحديث يفترض أن قراءة الكتب هي العلامة الثقافية، بحيث أن النقص فيها أو التقليل منها يصبح مؤشراً على ارتذاد ثقافي، ولا شك أن أصحاب المهنة كانوا وراء تغذية هذا التصور، فالناشرون وباعة الكتب ومعهم المؤلفون ظلوا يرددون بلا هواة القول بأن العرب أمة لا تقرأ، وأن أمة أقرأ لا تقرأ، وحدث في عام 1999 في معرض بيروت للكتاب أن وضع إحدى دور النشر العربية كفتاة صغيرة على مدخل جناحها وقالت إنه كفن القارئ العربي ميتاً، وركزت تغطيات الصحافة على هذا المنظر وصار ندرة من نوادر الأقاويل.

إن الرابط بين القراءة والثقافة حتى تكون هذه علامة على تلك لهو ربط قسري ويتجاهل حقائق جوهرية حول مصادر الثقافة، وأولها الرواية الشفاهية التي كانت مصدراً تاريخياً شاملأً وكلياً وله مفعول جبار في القديم مثلما له مفعول حديث في زمن الإذاعات والمسجلات والمرôويات الصوتية. ثم جاء زمان الصورة وثقافة الصورة، كما سنحدد في الفقرة التالية.

الصورة كتاب

تحولت البشرية تحولاً كبيراً حينما اعتمدت الكتابة وسيلة للثقافة، وكانت الشفاهية هي الوسيلة المطلقة، وجاءت الكتابة لتحتل المركز الأول ثقافياً وتزيح الشفاهية إلى الهاامش، وحدثت مرحلة وسط فيما بين الشفاهي والكتابي، وهي مرحلة التدوين حيث جرى رصد المنطوق وتحويله إلى مكتوب (مدون)، ثم انفتح الزمن للكتابة لتصبح الورقة والقلم محل اللسان والذاكرة، ومر زمن طويل تعودت فيه الثقافة على هذه الوضعية، حتى جاء زمن الفضائيات، وهو زمن ورث كل التحولات المرحلية في الإذاعة والسينما، ومرحلة التلفزيون الأولى، ومن هذه الوراثة جاءت ثقافة الصورة لتعلن تحولاً كبيراً آخر في حياة البشر، وهو التحول الثاني تاريخياً وحضارياً من بعد حدث الكتابة التي أزاحت الشفاهية. ولا شك أن ثقافة الصورة قد أعادت كثيراً من خصائص الشفاهية في المباشرة والسرعة والتفاعلية، وغيّرت من أنظمة الاستقبال التي رسختها الكتابة، فالكتاب صامت ومطلق والمؤلف في الكتاب سلطة متعالية، بينما القارئ لكتاب سلبي وهو مجرد مستقبل سالب، وليس بينه وبين المؤلف صلة من أي نوع فهو لا يراه ولا يسمعه ولا يستطيع محاورته، ومعظم المؤلفين هم أموات أو بحكم الأموات من حيث غيابهم المطلق، والكلمة في الكتاب هي صورة

جامدة، وهذه مفارقة كبرى مع الشفاهية حيث إن الكلمة الشفاهية حية وقابلة للتبدل والتغير والتفاعل، ويكون المستقبل فيها إيجابياً وفعالاً، مع اشتراك لغة الجسد في صناعة الرسالة وصياغة التواصل، وفيما بين الشفاهية والكتابية تحولت الأنماط الثقافية ومالت لمصلحة الكتابة وقيم النص المكتوب، وتولد عن ذلك أعراف ونظم معرفية منها وجود الوسطاء بين المؤلف والقارئ وهم الناشرون والموزعون من جهة، ومن جهة أخرى جاء وسطاء آخرون من الشرح والمفسرين والنقاد وعارضي الكتب، وهم فئات شكلت منها ثقافية كبرى على مر التاريخ.

وسط هذا كله جاءت الصورة لتقدم ثقافة مختلفة تلغي فيها أول ما تلغي - وظيفة الوسطاء، فالصورة تأتي مباشرة ولا تحتاج إلى شارح ولا مفسر ولا مترجم، ولكنها تكتفي بقيمها المباشرة، وهي قيم تفاعلية وحية وإيجابية، والمستقبل فيها يتفاعل عبر العين والأذن مباشرة وتلقائياً، وهي تعيد له موروثه الأنثروبولوجي القديم في المشافهة ولغة الجسد والتفاعلية.

هذا أمر، ومعه أمر مصاحب وهو ظهور رسائل الجوال ورسائل الفضائيات، وشاشات الإنترن特، وهي كلها صيغ ثقافية جديدة تتيح فرصاً خيالية للناس لكي يمارسوا أنواعاً متعددة من الوسائل المعرفية الرخيصة أو حتى المجانية، مع ما فيها من حرية مطلقة وسرعة في الاستقبال واختصار للوقت والجهد وتوفير للمال.

ومن المهم هنا أن نقول إن هذه صيغ ثقافية ومصادر للمعرفة تكشف أن القراءة التقليدية عبر الكتاب ليست هي المعيار على ثقافة مجتمع ما أو عدم ثقافته، وكما كانت الثقافة الشفاهية قادرة على خلق شاعر عبقرى مثل امرئ القيس ولم يقصر به عجزه عن القراءة والكتابة، فإن ثقافة الصورة تستطيع أن تخلق أجيالاً مثقفة ثقافة عصرية، وهي ثقافة نوعية ومتطرفة بكل تأكيد، وإن اختلفت بالضرورة بما هو متعارف عليه تقليدياً في تعريف المثقف. والصورة كتاب أيضاً مثلاً هي مصدر ثقافي لا يقل ثراء عن الكتاب بمفهومه التقليدي، وهي لذلك من أهم مصادر التثقيف، ولن نشك بكونها مصدراً مهماً وفاعليته عالية جداً ولها من الأثر أضعاف ما للورقة المنقوشة بالكلمات الجامدة.

- 6 -

المقارنة الثقافية

أشير هنا إلى عدد من التصورات الواهمة التي تعري حواراً كهذا الحوار حول سؤال القراءة عربياً، وهي كالتالي:

أ - تجري المقارنة مع الغرب عادة وتجرى الإشارة إلى ظاهرة الكتب الأكثر مبيعاً في الغرب، وهذا أمر يتم من باب التبكيت على العرب حينما تجري مقارنة الأرقام، والحق أن ظاهرة الكتب الأكثر مبيعاً في الغرب

ليست علامة على القراءة الجادة، ولكنها علامة على المكاسب المادية وعلى الاستهلاك السطحي للكتاب، وتلك النوعية من الكتب هي كتب ساذجة وبسيطة وليس كتاباً في المعرفة ولا في الثقافة العليا ولا في الثقافة الجادة، وهي إلى الاستهلاك وصناديق النفايات أسرع منها إلى العقول وكثيراً ما يترك الناس هذا النوع من الكتب على كراسى الانتظار في المطارات وعلى مقاعد الطائرات والقطارات للتخلص منها بعد التسلي بها لساعات، وهي كتب تباع عادة في أكشاك المطارات ومحطات السفر بعامة، وتصاحب الجرائد اليومية في موقع بيعها، أي أنها كتب يومية كالجرائد اليومية، ولغتها ومستواها هي لغة الصحافة ومستوى الصحافة، وهذه مسألة لابد من الأخذ بها وقت المقارنة، لكيلا نخلط بين الجاد والبسيط.

ب - حينما نقارن بين العرب والغربيين في مسألة الكتب، فلا بد أن نستذكر وضع وحالة الكتب المسماة بالأكثر مبيعاً، وهي التي تكون عادة في رأس المقارنة، وكذا لا بد أن نستذكر الحال الاجتماعية الغربية، وهي حال انفرادية، والفرد هناك هو كون قائم بذاته، ويندر التفاعل الاجتماعي المباشر بين البشر، وإذا ركب المرء في طائرة أو في قطار وحافلة فإن الصمت يعم بين الركاب ويندر أن يدخل راكب وأخر في محادثة تقطع عليهما مشوار السفر، ولهذا يلجأ الناس للكتب البسيطة والمسلية للتزجية وقتهم كبديل عن المحادثة، وهذا ما صنع موضة الكتب الأكثر مبيعاً، بينما الطبع الشرقي هو تزجية الوقت في

الأحاديث بين الناس المتعارفين وغير المتعارفين، وإذا جمع الناس عندنا مكان نشأت بينهم لغة في التخاطب والتواصل مباشرة، وهذه حالة تمييز بين مجتمع آخر فرضت عند الغربيين شراء الكتب الميسرة لقيام أسبابها الاجتماعية والحياتية، بينما لم تنشأ عندنا نفس الأسباب، فاختلت الحالة هنا عن هناك، وليس المسألة مربوطة بحب الكتب وحب الثقافة، وليس في نوعية الأكثر مبيعاً ثقافة ذات شأن، وهي -حسب- ضرورة اجتماعية.

وفي المقابل فإن التخاطب بين البشر هو ضرب من ضروب التبادل الثقافي والمعلوماتي مثلاً هو إمداد وتسليم وتزجية وقت، وهو عندنا من نتائج التفاعل البشري بينما يطلبها الأوروبيون عبر الكتاب إذ لم تتيسر لهم عبر البشر.

ج - لا شك أننا نضج بالشكوى من تراجع مقام الشعر بين الناس، والأمة الشاعرة لم تعد تعير الشعر مكانة عليا كما كانت في سابق أزمنتها كلها، وهذه ظاهرة لا تختنا وحدنا، ولقد جرى قبل بضع سنوات أن قامت جامعة أكسفورد بإلغاء كافة عقود النشر المتفق عليها سلفاً مع عدد من الشعراء الإنجليز وتحملت الجامعة غرامات الإلغاء، وذلك لأن دار النشر الجامعية الخاصة بالجامعة لاحظت عزوف القراء عن الشعر مما حول المنشورات الشعرية إلى مكدسات في مستودعات الجامعة، وكانت الخسائر هنا كبيرة مع فقدان الدور الظليعي للجامعة في نشرها لأعمال لا تسويق لها، وهذه قصة كبيرة

ومشهورة تكشف عن التغير الثقافي الهائل وعن مبلغ خطورته مما أدى بالجامعة إلى تصرف جريء كهذا. ونحن هنا نقول ذلك للتعرف على الوضع الكوني بعامة كيلا نظن بأنفسنا وثقافتنا ظنوناً غير واقعية ونكون مهولين أكثر منا باحثين وملاحظين.

- 7 -

التفاعل الثقافي

من الملاحظ ثقافياً أن الناس قد تجاوبوا مع ثقافة الصورة بصيغة عريضة وسريعة ومغربية، وهذا مؤشر على ما تضمره النقوس من مخزون أنثروبولوجي للحس الشفاهي لدى البشر، وكأن البشر كائنات شفاهية أكثر منها أي شيء آخر، وهذا ما يجعلنا نأخذ بعين النظر ما كان الناس يمارسونه وقت سيطرة الكتاب حينما كان الوسيلة الأهم في تداول المعرفة، وكانت الممارسات تجري دوماً لتحويل الكتاب إلى مادة صوتية، عبر تحويل الروايات إلى مسرحيات مماثلة، وإلى أفلام مصورة، وعبر الأمسيات الشعرية والمحاضرات والندوات والنقاشات حول الكتب، وكان الناس يكتشفون فروقاً جذرية في فهمهم للمكتوب حينما يتحول إلى منطوق أو مصور، ولقد كان هذا مؤشراً إلى العلاقة الذهنية بين البشر والصوت، وبين البشر والصورة الحية، وكون هذا أكثر مدعاه للفهم والتفاعل. ولذا فإن الصورة الملتقطة حينما جاءت

لتعم الكون الاستقبالي لاقت استجابة سريعة وتفاعلية معها حتى صار ذلك بمثابة العودة إلى الأصل الثقافي البشري، وتحول التواصل بين الناس ومصادر الثقافة ليأخذ هذه الصيغة الحديثة للشفافية، وهذا تطور يجري ضد مصلحة الكتاب.

وإن كنا نقول بهذا فإننا نعززه بالقول إن ثقافة الكتابة لكي تحافظ على قدراتها التنافسية لابد لها أن تتمثل خصائص ثقافة الصورة، وهي خصائص واضحة المعالم، ومنها المباشرة والسرعة والتلوين والدقة والإشارة، وهي سمات تفاعلية نجحت مع النصوص التي تنطوي على هذه الصفات أو بعضها، ولقد كنا نشهد كيف أن محمود درويش يستقطب حضوراً كاملاً في كل مرة كان يلقي فيها أمسية شعرية، وذلك لما في خطابه من خصائص تشبه سمات وخصائص الصورة، وسنقول شيئاً من هذا عن أمسيات الشعر الشعبي، والاحتفاليات الثقافية، والروايات، وهي صور ثقافية متحركة، عرفها ما يسمى بالوعاظ الجدد واستثمروها بمهارة جاذبة، وهذه كلها أمثلة واقعية تكشف أن ثقافة الصورة تحفز الاستقبال لأنها تحفر باتجاه رغبات قديمة مخبأة داخل النفس البشرية في حنين الذات باتجاهها إلى الجذر الإنساني العميق في المشافهة والمحادثة والتفاعل الحي ومبشرة الفعل، مما يفرض علينا التفكير بصدق عن مصادر المعرفة ونوعية المعرفة، وكيفية توصيلها، وليس للكتاب إلا أن يلعب لعبة التعشيش، فيسترق النظر للصورة ويحاول أن يحاكي بعض

خصائصها الكي يبقى على موقعه بين الناس. وليس بالصعب أن نتذكر أن أمسيات محمود درويش تحظى بحضور جماهيري كبير معظمه ليس من أهل التخصص الشعري الحادثي، ولو كانوا كذلك لرأيناهم مثلاً عند أدونيس، والذي يمكن أن نقوله هنا هو أن نصوص درويش ترتبط ارتباطاً عضوياً بالصورة الحية للحال الإنسانية الفلسطينية، وهي صورة تحضر فيه ومن حوله حتى صار يجسدها حتى في نصه الذاتي والغزلي، ويحيط به وبشعره هذا الحس الحيوي المتفاعل عقلياً وعاطفياً حتى ليكون صورة متحركة وفعالة في النص وفي الناس.

وسنرى أيضاً مثلاً آخر مع الشعر الشعبي الذي يستقطب جماهير عريضة ليس لنا أن نحصرها بالثقافة الفصيحة، وهذا الشعر ينهل من اليومي ومن الصورة المغناة والأرشيف الأسطوري للذاكرة الشعبية، وهو ذو تركيبة شفاهية وصوتية تقوم على التفاعل والحركات التمثيلية ولغة الجسد وتستحضر الشارع اليومي والمبادر بصورة تلقائية.

وهذا يفضي بنا إلى وضع تصوراتنا مرة أخرى نحو الثلاثية الاصطلاحية: (يسمع) (يقرأ) (يبصر)، وما تحمله كل واحدة منها من بعد ثقافي وحضارى وتحولات مرحلية كبيرة وعميقة الدلالة، حيث تتولى البشرية تبديل علاقاتها مع ذاتها ومع محیطها حسب الوسيلة الثقافية المستخدمة، مما يشكل تنوعاً في المصادر الثقافية. ولسوف أقف وقوفات على عدد من الكتب التي حققت مبيعات عالية بمثال

عربي ومثالين أمريكيين للتعرف على خصائص ظاهرة الأكثر مبيعاً وأبعادها، وذلك في مقالات تأتي بعد إجازة الحج -إن شاء الله-، وفيما بين ذلك سأقدم مقالتين تخصان أمور الكتاب والاستقبال الثقافي.

اقرأ / الكتاب

القيمة الرمزية للثقافة العربية

* الكلمة التدشينية للقاء الثقافي الذي نظمته جامعة أكسفورد بالاتفاق مع جائزة الشيخ زايد للكتاب، والمنقول هنا هو الترجمة العربية للكلمة الافتتاحية لذلك اللقاء في يوم الخميس الخامس من نوفمبر 2009.

* أيتها السيدات والساسة، طاب مساؤكم، شكرأً لجائزة الشيخ زايد للكتاب التي جمعتنا في هذا اللقاء، وشكراً لكم في جامعة أكسفورد على الترحاب الكريم، وأنا أمامكم تربطني بهذه الجامعة قصة طريفة، فقد جئت إلى الجامعة عام 1972 لإجراء مقابلة بعد أن تقدمت بطلب لإكمال دراستي العليا هنا، وحينما دخلت إلى المكتب اكتشفت أنني أمام البروفيسور مصطفى بدوي، وكانت أعرف عنه الكثير لكنني أقابله لأول مرة، وبعد ساعة من التحدث أظهر في ترحبيه بي لأكون أحد تلامذته، وكان ذلك موقفاً كريماً منه ولا شك، غير أنني حينما خرجت من المكتب انتابني شعور حزين إذ تصورت نفسي طالباً عربياً مع أستاذ عربي، وعن موضوع عربي، وهالني أن أرى حالي وقد قطعت نصف الكرة الأرضية لأنتهي هذه النهاية، لقد كنت مفعماً بالتصورات حينها عن المستشرقين والاستشراق، وكانت أريد حقاً أن أعيش حالة

علمية أحتك فيها مباشرة مع هؤلاء، ولم أستظرف فكرة أن يشرف على رجل عربي وهذا ما جعلني أغير وجهتي وأذهب إلى أدنبه ثم إلى إكستر حيث درست على يد مستشرق هولندي هو البروفيسور جوتهي ينبول. على أنني أشير الليلة إلى الدكتور بدوي الذي ارتبط اسمه بهذه الجامعة، وأقول إنه أستاذ عظيم وعالم جليل وقد توطدت علاقتي معه كثيراً، وله في نفسي مقام رفيع، وما قصتي هذه إلا مسألة خيارات وليس مسألة تمييز.

هاؤنذا أعود إلى أكسفورد بعد سبع وثلاثين سنة، بترتيب كريم منكم ومن جائزة الشيخ زايد، ويفترض بي أن أتحدث عن الثقافة العربية لمدة لا تزيد عن عشر دقائق إلى ربع ساعة، وهي مهمة صعبة أن أختزل تاريخاً عظيماً في هذه الدقائق، وقد قررت أن أقتصر بعض جمل ذات بعد رمزي لكي أستخلص منها صورة عن الأبعاد الكلية لهذه الثقافة.

- ١ -

هناك علامات أولية يأخذها العرب مأخذ فخر بما إنها تدل على قيم ثقافية ذات مفعولية عالية، وأولها هو نزول الوحي على الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- تحت مسمى (الكتاب)، فالذى جاءه من ربها هو ما صار يسمى بكتاب الله، وهو وصف القرآن لنفسه وهي الصفة الملازمة له، ثم إن أول كلمة نزلت في هذا الكتاب هي كلمة (اقرأ).

هنا تأتي الكلمتان (الكتاب واقرأ) لتكونا علامتين رمزيتين عاليتي

القيمة، وقد صنع هذا عالماً راقياً من الخيال الثقافي ومن التصرف العملي، ولذا صرنا نقرأ حكايات كثيرة تستند إلى هذين المعنين، الكتاب والقراءة، حتى صارت جملة (اقرأ الكتاب) جملة ثقافية تحمل تصوراً معرفياً به نقرأ الواقعية الثقافية العربية في لحظات تكوينها وفي أوج ازدهارها، وحينما وقع عدد من الأسرى من غير المسلمين في يد جيش المسلمين كان اقتراح الرسول عليهم الحصول على فك أسرهم هو أن يعلموا عدداً من المسلمين القراءة والكتابة، وهذا تطبيق أولي وعملي للمعنى الرمزي للكلمتين الحامتين للرمزيات الأولى، ومثل ذلك ظهور عدد من المسلمين الأوائل بصفتهم كتاب الوحي. وهي صفة عالية الرمزية ومن تحققت له صارت علامة تلحق سيرته وتميز تاريخه، ومسألة تحرير الأسرى ثم اختيار رجال لكتابية الوحي هما أول تطبيق عملي لجملة: اقرأ والكتاب، أو: اقرأ الكتاب.

- 2 -

كان ذلك في مطلع التأسيس الثقافي العربي بصيغته الإسلامية المبكرة، وهو ما صرنا نشهد تحقيقه عملياً وثقافياً في العصر الأموي ثم في العصر العباسي، أي في فترة القرون الثلاثة الأولى للتاريخ العربي، أي القرن السابع وما بعده، حيث نشط الفعل الثقافي بعد استقرار الدولة العربية وجاءت الترجمة بشكل مكثف وبدعم من الحكام والوجهاء، وجاء التأليف في كافة العلوم الأدبية والعلمية والدينية، وظهرت طبقة

المثقفين والمتجمين والمؤلفين والشعراء والرواة، واتسعت الدائرة بطلب وبدعم من السلطة الحاكمة، وكان من ديدن السلاطين انتقاء أفضل المثقفين لتعليم أبنائهم من أطفال القصور، وتهيئة هؤلاء الأبناء للحكم معتمدين على ثقافتهم ومعرفتهم، وهذا أمر يتم تحت تأثير المعنى الرمزي الأول حول مفهوم (الكتاب واقرأ)، أي أنه تصور عملي للجملة الثقافية: اقرأ الكتاب.

- 3 -

تشهد الكتب التي بين أيدينا الآن من مثل (كتاب الأغاني) على الدرجة العالية من المزاج الثقافي المتوفر في المجتمع العربي حين ذاك، ونحن هنا نتكلم عن القرن السابع حتى التاسع، وهي قرون ثلاثة شهدت ظهور العرب كقوة سياسية وكقوة ثقافية وكقوة حضارية، و(كتاب الأغاني) يتكون من عشرين مجلداً، وكتبه صاحبه في الأصل ليسجل مئة لحن غنائي، وهي الألحان التي اختارها من بين المئات ليكتب عبرها تاريخ الغناء وثقافة الغناء في عصره، ولكنه لم يكتفي بذلك، وقد أحاس أن الثقافة كل لا يتجزأ، فالغناء يقوم على الألحان موسيقية وعلى أصوات بشرية، ومع كل أغنية هناك نص شعرى وهناك جمهور مستمع وهناك تاريخ لهذا اللحن ولهذا النص ولهؤلاء البشر، ولهذا راح الأصفهاني (مؤلف الكتاب) ليدخل ويدخلنا معه في

رحلة طويلة وعميقة عبر التاريخ القديم ومع التاريخ الحاضر أمامه ليكتب عن المجتمع في مدينة بغداد بكل أطيافه، وجاءت حكايات كتاب الأغاني لتكون حكايات ثقافية تجمع بين الشعر والغناء والقصص الاجتماعية والممارسات العلنية والشخصية للناس بكل فئاتهم بدءاً من السلاطين إلى المطربين والمطربات رجالاً ونساء وصفاراً وكباراً، وظل هذا الكتاب سجلاً اجتماعياً وثقافياً يكشف عن التنوع الثقافي والاجتماعي ويكشف ذوق المجتمع ومستواهحضاري مثلاً يكشف عن منزلة الكتاب في الوسط الاجتماعي، مما جعل فئة تنشأ بوصفهم فئة المؤلفين ونخبة المثقفين والانتماء إلى هذه الفئة يرفع من مقام المرء ويعزز منزلته الاجتماعية.

- 4 -

ومن قبل كتاب الأغاني كانت المقوله العربية التقليدية بأن (الشعر ديوان العرب)، وهي مقوله تشير إلى مرحلة ما قبل الإسلام حيث كانت الأهمية هي السائد، ولم يكن في مكة سوى نفر قليل يجيدون القراءة والكتابة، وقد أحصاهم أحد المؤرخين بما لا يزيد عن عشرين رجلاً، وذلك في مدينة مثل مكة المكرمة، وكانت صفتها في ذلك الوقت القرية أو أم القرى، وذلك في القرن السادس، ولعل عدد سكانها لا يزيد عن أربعة آلاف نسمة، كلهم أميون ما عدا عشرين منهم -حسب

البلاندي - وهم عينة على سائر القرى العربية في وسط شبه الجزيرة العربية، ولكن الحال تختلف في ممالك الجنوب وممالك الشمال حيث تشير الحفريات الأثرية إلى أن المجتمع العربي هناك يعرف الكتابة بصورة واسعة، وبعضها يشير إلى نصوص ظهرت قبل الميلاد بألفي سنة، وتشير إلى مجتمع يكتب ويقرأ بكل فئاته نساء وأطفالاً إضافة إلى لغة الأدب والتجارة ولغة الطقوس الدينية، كما كان عرب مكة المكرمة يعلقون نصوصهم الشعرية مكتوبة على ألواح كبيرة تستند على جدران الكعبة.

ولكمنا مع هذا نلاحظ أن السمة الغالبة هي هيمنة الشعر المروي والمنظوق شفاهياً مما يعزز شفاهية الثقافة، وهذا ما يجعل الشعر هو الأرشيف المسجل لكل ما هو قيمة ثقافية عربية، مما وضع الشعر في موضع رفيع عند العرب، وظللت كلمات من مثل (العرب أمة شاعرة) هي واحدة من أهم ما يصف به العرب أنفسهم، ولقد بلغ الشعر منزلة ثقافية عالية الرمزية حتى إن ابن عباس، وهو ابن عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - نصح مفسري القرآن الكريم بالعودة إلى الشعر العربي للاستعانة به لفك دلالات معاني الكلمات القرآنية. وظل الشعراء في حظوة متقدمة عند السلاطين، ولذا كان من أهم أهداف الحركة التأليفية في العصر العباسي في القرن السابع هو جمع الشعر القديم ورصده في كتب وظهرت طبقة من المدونين اشتهرت بهذا العمل وتخصصت فيه ولا تزال الكتب المجموعة في تلك الفترة قائمة بيننا

الآن، وهي مراجع ثقافية معتمدة وبالغة الأهمية، وهي بحق سجل ثقافي وأرشيف حضاري وذوقي أيضاً، وتخرجت على صفحاتها أجيال من الشعراء على مدى التاريخ حتى يومنا هذا.

- 5 -

يحتل الشعر مكانة عالية في الثقافة العربية حتى إنه ليطبع الشخصية العربية ذاتها، وإذا قبلنا المقوله القديمة في أن الشعر ديوان العرب، أي سجلهم الثقافي فإنه أيضاً يمثل المرجعية الذهنية للشخصية العربية، فمن المتصور العام أن كل رجل وامرأة من العرب لا بد وأن يمر في عمره بمرحلة من كتابة الشعر، وهكذا بدأ ويبداً كل كاتب حتى طه حسين ونجيب محفوظ، وهما اللذان جربا قول الشعر، ثم اكتشفا طرقاً أخرى لهم، وهي ظاهرة عامة وشاملة، حتى إنك لتجد الخطاب السياسي وكتابات الدواوين وقد طغى عليها الشعر، وذلك ملموس في خطب الخلفاء مثلما هو ملموس في خطب الزعماء العرب المعاصرين وفي لغة الأحزاب مثلهم مثل الكتاب، بل إننا قد نقرأ السلوك العام على أنه تجسيد شعرى.

وفي مقابل ذلك كانت الثقافة العربية تزخر بالخطابات السردية، ولكن السرد - مع كثرته وشيوعه - ظل في مقام ثانوي مقارنة بالشعر، ولقد كانوا يقولون عن (ألف ليلة وليلة) إنه كتاب لا يصلح إلا للنساء

والأطفال وصغار العقول، وظل هذا الكتاب خارج المتن الثقافي وفي إطار الشفاهي، ولقد تنقل في أزمنته الأولى بين البلدان والألسنة دون اهتمام بضبطه وتدوينه، وحينما تم تدوينه جاء غفلًا من كاتبه أو كاتبته، ولم ينتمي النص لاسم معين، تحقيرًا له وتقليلًا من شأنه، في حين أن الشعر قد دخل مرحلة التدوين مبكراً، وكانت أسماء المدونين تتوج أغلفة الكتب، وكانت مهنة التدوين الشعري مهنة نبيلة، وأسماء المدونين تبرز في مقدمة الأسماء الثقافية في التاريخ العربي، وكان الشعراء يهتمون بأمر كتابة شعرهم وشرح قصائدهم وتسويقها عبر الرواية، ويستعينون بأكابر الأدباء واللغويين لأداء هذه المهمة كما كان يفعل المتنبي ومن قبله من كبار الشعراء، وهي مزية يختص بها الشعر دون السرد، والأخير ظل محترقاً، وظلوا ينتظرون إليه على أنه خطاب مؤنث بينما الشعر هو خطاب الأكابر من الرجال وعليه القوم، ولا شك أن نصوصاً سردية كثيرة وعظيمة قد ضاعت علينا بسبب عدم اكتتراث المثقفين في تدوينها، والأمة التي دونت تراثها كلها بما في ذلك معارف الأوائل في أنساب القبائل وأخبارها وجغرافية الأرض والأماكن وكذلك علم الفراسة والفالك والنجوم، وقصص الشعراء والأمراء وخطب البلغاء؛ هذه الأمة نفسها وهي أمة (اقرأ الكتاب) لم تعر اهتماماً لتدوين السرد، وإذا جرى تدوين السرد فإنه يجري على استحياء، ونحن لا نعرف الذي قام بتدوين سيرة عنترة ولا أبي زيد الهلالي، مثلما لا نعرف من روى وسجل كتاب ألف ليلة وليلة.

لقد احتجنا إلى بضعة قرون لكي نعيد للسرد قيمته ونمنحه موقعًا ثقافياً محترماً، وذلك مع ظهور فن الرواية الحديث، وبروز أسماء الروائيين، وهذا أثر على الموقف من القصص والحكايات، فجاء مثقفون وصاروا يجمعون الحكايات من أفواه الناس ويكتبونها في كتب تحمل أسماء المدونين ولم يعد ذلك عيباً يتسترون عليه، ولم تعد تلك النصوص خاصة بصغار العقول والأطفال، بل صارت نصوصاً تقرأ بالعلن وتحتل مقاماً عالياً.

وربما يكون الزمن قد دارت دورته ضد الشعر، إذ الواضح الآن أن السرد، والرواية وخاصة، قد صارت تستأثر باهتمام القراء أكثر من الشعر، وبدأت منزلة الشعر تتراجع في مقابل ظهور ثقافة الصورة من جهة وجماهيرية الرواية من جهة ثانية، والتيار يتوجه ضد الخطاب البلاغي عموماً وعلى رأسه الخطاب الشعري، وتحتل الصورة والعالم الرقمي موقعًا أعلى من أي خطاب ثقافي آخر، والأمة الشاعرة لم تعد تجد في أجيالها من يغير اهتماماً كبيراً للشعر، وإذا كان الخلفاء قد يرسلون أبناءهم إلى الbadia العربية لتعلم لغة الأعراب وأشعارهم فإن شباب هذا الزمان ربما يجهلون حتى مجرد أسماء الشعراء فما بالك بحفظ نصوصهم.

- 6 -

لئن كانت الثقافة العربية تقوم على مقوله: اقرأ الكتاب، وتمثل

لها هذه المقوله قيمة رمزية عاليه ثقافياً، وينبني الخيال العربي على هذا التعبير؛ فإن جائزة الشيخ زايد قد تأسست على هذا المعنى، وهي جائزة عن الكتاب وللكتاب، وهدفها تشجيع التأليف والاحتفال بالإبداع والتأليف الابتكاري، وهي هنا تسير في مسار التصور الثقافي الأصلي لرمزيات الثقافة وتفاعلاتها.

الفصل الثاني

رأسمالية الثقافة: الأكثر مبيعاً

لا تحزن (ثقافة الاستشفاء)

- 1 -

في منتصف عام 2005 وجدت نفسي أنطلق نحو مكتبة العبيكان لأشتري كتاب (لاتحزن) للشيخ عايش القرني، هناك وجدت الطبعة التاسعة عشرة من الكتاب، وقد كتب الناشر على الغلاف أنه باع أكثر من مليون نسخة، ولم يفت وقت حتى رأيت الناشر للكتاب يضع إعلاناً كبيراً في جريدة الرياض (2/5/2006) يهنىء فيه الشيخ على حصوله على جائزة (المؤلف العربي الأول)، ويشير إلى أن كتاب لاتحزن قد حقق مبيعات وصلت إلى مليون ونصف نسخة، ثم حصل أن تقابلت مع الناشر في معرض أبو ظبي للكتاب بعد شهور، وسألته عن حال الكتاب فقال لي إنه تجاوز ثلاثة ملايين نسخة وأن مبيعاته في مصر واليمن وبلدان المغرب العربي لا تقل عنها في المملكة والخليج.

كل هذا وقد كنت من قبل قد أثرت سؤالاً عن هذا الكتاب طرحته على طلابي في الجامعة، وقد جاءتني الإجابات معبرة جداً، فمن مجموعة طلاب عددهم اثنان وخمسون طالباً وجدت أن خمسة وثلاثين منهم قد سمعوا عن الكتاب أما من سمع وقرأ فكانوا ثلاثة وعشرين، على أن القراءة تراوحت بين كامل الكتاب وبعضه أو تصفحه، وتبعاً لذلك استعن بأستاذتين فاضلتين كانتا تدرسان عندي في مرحلة الدكتوراه، وهما أمينة المسهر وأمل الخياط التميمي، ولقد تولتا مشكورتين رصد

وضع الطالبات مع الكتاب، ولقد اكتشفت أن أمل قد سبق لها أن طرحت سؤالاً على طالبات كلية البناء بالدمام ووجدت أن سبعين طالبة قد سمعن بالكتاب، ومن بينهن خمسون قرآن الكتاب مابين كامل أو أجزاء منه، والرقم مستخلص من فصل عدة طالباته ثمانون طالبة، أما أمينة فقد وجدت أن ثمانية وأربعين بنتاً قد سمعن بالكتاب ولكن اللواتي قرأن كن ست عشرة بنتاً فقط، وذلك من فصل عداده ستاً وستين، وكذا كانت النتيجة مع ابنتي غادة التي وجهت سؤالها إلى فصل في كلية اللغات في جامعة الإمام وكانت النتيجة أن خمساً وتلاثين بنتاً من بين ثمانية وتلاثين سمعن بالكتاب، واللواتي قرأن لم يزدن عن أربع عشرة طالبة.

هذه إحصاءات لا شك أنها ستكون كبيرة جداً إذا قارناها بما يمكن أن نجده عند الطلاب والطالبات من إجابات فيما لو سألناهم عن مؤلفين آخرين، وأعطي مثلاً واحداً يمكن أن يدل على غيره، وهو أنني في العام الفائت وبعد أن دخلت على طلبي في مادة (الأسلوبية) في الفصل الأول من العام 2008 وجدت طالباً يلحق بي بعد المحاضرة ليسألني عن اسمي، وقد لاحظت أن الطالب لا يعرفني ولا يعرف شيئاً عنّي، هذا بعد مرور خمس محاضرات لي معه ومرور اثنتين وتلاثين سنة في التدريس الجامعي، وسنتي تلك كانت هي السنة الأخيرة في قبل التقاعد عند سن الخامسة والستين، والطالب كان في سنته الجامعية الأخيرة أي أنه قد أمضى قرابة أربع سنوات في الجامعة وفي قسم اللغة العربية تحديداً، وهذا يعطي مؤشراً عن حال جيل الشباب الذين تحدث عندهم تحولات نوعية باللغة فيما يفهمهم وما لا يفهمهم.

تلك تحولات ثقافية لا بد من التنبه لها، ولقد مرت على اثننتان وثلاثون سنة في التعليم الجامعي عندنا رأيت فيها التغيرات تجري أمام عيني وفي قاعة الفصل في جدة والرياض، وتشكل هذه عندي قراءة للمجتمع وتحولاته على ثلاثة عقود، ربما وقفت عندها في مقالات لاحقة -إن شاء الله- ولكنني هنا أحصر القول في كتاب (لتحزن) وأستدرك القول كيلا يلتبس الأمر وأنبه إلى أن ما جرى من الطالب عن عدم معرفته باسمي لا يقوم عندي كدليل على جهل هذا الطالب، وإنما هو دليل كاشف عن تغيرات كبرى في الاهتمام ونوعية المتابعة، فهذا الطالب الذي لا يعرفني لا بد أنه وبشكل أكيد يعرف أسماء وشخصيات أخرى من تدخل ضمن دوائر اهتمامه، وهي ليست علامات جهل ولا علامات عقوق ولكنها -فحسب- علامات تساعد الباحث على التعرف على حقيقة المتغيرات وعلى الواقع الاجتماعي والثقافي للجيل الشاب وما يمس توجهاته. وحينما قلت قصة هذا الطالب لأحد زملائي وبدا منه الامتعاض لم أجد ما أقول له سوى: لاتحزن، قلتها وأنا ابتسم وكأنني أمام نكتة، ولكن الحال كانت أنني كنت أتفهم الوضع ولا أحزن له وإنما أجعله مدخلاً للسؤال والمقارنة.

- 2 -

شيع كتاب (لتحزن) وانتشاره يقوم كمؤشر ثقافي لافت للواقعة

الاجتماعية، وهي تتدخل مع الحال الثقافية لظاهرة الكتب الأكثر مبيعاً، مما صار له مكانة كبيرة في أمريكا أولاً ثم في أوروبا تأثراً ومتابعة بعد ذلك، وكتاب (لتحزن) قد سجل موقعاً متقدماً في قائمة الأفضل مبيعاً عندنا، ولا بد أن نتنبه -أول ما نتنبه- إلى أن الكتاب لم يحضر بمتابعة ولا ضجيج إعلامي لا وقت صدوره ولا فيما تلا ذلك من سنين، وهو قد سار بين الناس مسرى النار في الهشيم من دون ترويج إعلامي، مما يجعلنا نستبعد العامل الإعلامي، ولكننا لن نغفل عن كون المؤلف ذاته يحظى بصيت إعلامي لا بد أن له دوراً في التحفيز باتجاه الكتاب، غير أن هذا لا يقوم كسبب رئيس أيضاً، وذلك أن للمؤلف نفسه كتاباً أخرى كثيرة لم تبلغ مبلغ هذا الكتاب من الشيوخ والقبو، وهذا يدفع بنا إلى البحث عن عوامل أخرى غير عامل المؤلف، وهذا ما كنت أبحث عنه في قاعة الفصل مع طلابي حيث ظلت أسأله عن الكتاب، وكانت الإجابات تدور حول ظاهرة (الحزن) وأنها ظاهرة قال عدد من الطلاب إنها كثيرة ومنتشرة بين الجيل الشاب أولاداً وبناتاً، ولم يخف الطلاب إحساسهم بأنهم قد اشتروا الكتاب بسبب عنوانه وبدافع من حاجتهم لمواجهة أحزانهم.

لقد كنت ألف وأدور بشكل حاولت أن يكون تلقائياً وعلمياً وأن أبعد عنه الذاتية وال مباشرة والإلحاحية لكي أستخلص الرؤية منهم دون إيحاء أو توجيه، ومع مداومة التحدث بأريحية مطلقة وبما يشبه العفوية توالت الإجابات مع دورانها حول هذه النقطة بالذات، وهي

انتشار الأحزان وتمكنها من نفوس الشباب، مع عدم وجود سبل
لتبديد هذه الأحزان.

هذا ما جعلني أرى أن الشيخ عايض قد اكتشف هدفه بحدس ثقافي تصادف مع لحظته الصحيحة حيث لم يجرأ اجتماعياً كامناً ولكنه منتشر وعميق، هذا من جهة، ثم إن الأمر وقد تبين أنه كذلك، لم يعد أمراً ثقافياً، وليس له شأن بمسألة القراءة والثقافة بما أنها مظهران ثقافيان، ولكن المسألة تتعلق بالحاجة النفسية، والذين يأخذون الكتاب لا يأخذونه للتثقف ولا للتعلم أو السياحة بين الحكم والأمثال والقصص، مما يملأ الكتاب، ولكنهم استقبلوا الكتاب بوصفه كبسولة علاج، ولم تكن المكتبة البائعة للكتاب إلا بمثابة الصيدلية.

لقد جاءتني شواهد كثيرة عن أناس قرؤوا الكتاب وليسوا من تعنفهم قراءة الكتب أصلاً، وكذلك جاءتني قصص عن أسماء لأناس من عليه المجتمع قرؤوا الكتاب وشكروا المؤلف عليه وزادوه دعاء وأظهروا امتنانهم منه، وقد أشاروا أنه ساعدهم في مواجهة أحزانهم، وكل هذا -مع ما وجده من الطلاب- يعزز الفكرة بأن رواج الكتاب كان دافعه الاستشفاء وليس التثقف. ويصبح هنا أن نقول إننا لسنا أمام ثلاثة ملايين قارئ، ولكننا أمام ثلاثة ملايين حزين. وهذه هي الحقيقة التي استخلصتها من استطلاعاتي.

يدخل الكتاب تحت مظلة الكتب الأكثر مبيعاً، وهذا مصطلح يشير عادة إلى نوع من الكتب تلامس الهم الاجتماعي العام، وهي عادة

من الكتب السهلة في موضوعاتها وفي أسلوبها، ويغلب عليها أن تكون مؤلفين لهم صيت اجتماعي كبير، وفي الغرب يكون هؤلاء من الإعلاميين المقربين من دوائر القرار، أو من الفنانين أو من الساسة السابقين، أو من علماء النفس الذين يتعاطون مع المشاكل النفسية والاجتماعية الشائعة، وتأتي الكتب في هذه الحالات لتكون كتب كشف أسرار أو كتب معالجة للحالات، وتكون كتب فضائح أحياناً، ولها كلها سمات وخصائص ثقافية أرجع التفصيل فيها للمقالة القادمة حين أقف على ظاهرة الكتب الأكثر رواجاً في أمريكا، وهي مصدر هذه الثقافة أصلاً وكان انتشارها العالمي نتيجة لذلك التأسيس الثقافي الأمريكي، وأنت لن تجد كتب برتراند راسل مثلاً تحصل على أي نسبة من المبيعات تؤهلاً لها للمقارنة مع هذا النوع من الكتب، وفي أمريكا نكتة ثقافية عن آينشتاين وشارلي شابلن، وقد حدث أن تصاحباً في مشوار للمشي في سان فرانسيسكو، وحينما مرا على جمع من الناس انطلق التصديق، وهو ما جعل شابلن يلتفت إلى آينشتاين ويقول له مجاملًاً: إنهم يحيونك سيدى، فجاءه الرد سريعاً بأن قال آينشتاين: إني أمر بهؤلاء القوم يومياً على مدى عشرين سنة ولم يلتفت إلى منهم واحد فقط.

وقياساً على هذا تمكنا المقارنة بين كتاب عن حياة آينشتاين وأخر عن حياة شابلن، وسنجد الفرق في المبيعات، وهي فروق ثقافية لابد من التبصر بأسبابها، وهي أسباب لا تتعلق بالمعنى الرومانسية التي

تلقي اللوم على الناس وعدم جديتهم وعلى كسد العلم الجاد، هذه إحالات ساذجة لا تقرأ الظواهر على حقيقة أمرها، لأن الأمر يتعلق بفكرة الرواج وخصائص الفنون الرائجة في مقابل العلوم الصعبة والخاصة، وفيما بين العموم والخصوص تقوم فواصل وخصائص كثيرة، ولقد ورد في مسرحية لسوفوكليس أنه كان يلوم الشباب الروماني على عزوفهم عن فنون الحرب وتعلقهم بفنون المتعة والتسلية، حتى صاروا يؤثرون قضاء أوقات في الحمامات أكثر من ممارستهم للمصارعة، والمصارعة في ذلك الزمن فن يقوم على تقوية الشباب وتهيئتهم للحروب والمواجهات، وعزوف الشباب عن الجاد إلى المتع أو إلى الضروري نفسيًا كلها سمات ثقافية لا تخص قوماً دون قوم ولا تاريخاً دون تاريخ، والمصطلح الثقافي المسيطر الآن هو مصطلح الكتاب الأكثر رواجاً مما هو شاهد على خاصية ثقافية لها أثراً كبيراً واللافت.

على أن كتاب لاتحزن وهو يضرب في أعماق الوتر النفسي قد لامس جانباً رمزاً تم توظيفه بطريقة تلقائية، وهي أن جملة (لاتحزن) تستدعي بالضرورة جملة: إن الله معنا، وهي حمولة دلالية قوية وعميقة في ثقافتنا حيث حادثة الانحباس في الغار من تحت الحصار والملاحقة الحسية والنفسية، وهي حادثة الهجرة الكبرى من الخوف والملاحقة إلى الانطلاق والتحرر، قصة كانت للرسول عليه السلام وصاحبها الصديق، ويأتي معناها كعنوان لكتاب لتحمل معاني

الخلاص من الخوف والملاحة حيث يقرأ القارئ هذه المعاني بداعف
نفسي غير معلن وتتحرك نفسه باتجاه الانعتاق والخلاص، ولا شك
أن العنوان هنا قد لعب دوره هذا بمفعولية عالية جداً، وسنزيد الأمر
كله حديثاً وبحثاً فيما يتلو من مقالات -إن شاء الله. وإن كنت أشير
بعجالـة إلى ملـمح مهم وهو تقلص دور العائلـة وجـنوح الفـرد نحو مـزيد
من الفـردـية، وذلك أمر يـقـف كـسـبـب لـشـيـوع بعض أنـوـاع الكـتـب الأـكـثر
مـبيـعاً، حيث تـحل محلـ الأـهـل في تقديمـ الوـصـاـيـة والإـرـشـاد وتـوفـير مـلـجاً
نـفـسيـيـ مـفترـضـ، وهذا مـبـحـثـ له مـاـهـ وـسـيـكـونـ أحدـ مـباـحـثـناـ فيـ هـذـهـ
الـسلـسلـةـ منـ المـقاـلـاتـ.

تصريف كامرأة / فكري كرجل

ابتدأ ستيف هارفي حياته في ظل المعاناة والحرمان، وكان كل شيء يشير إلى أنه سيكون واحداً من أبناء الشوارع، ولم يكن لون بشرته سيساعده، فهو رجل أسود محدود التأهيل، غير أن السبيل كلها تفتحت له، حيث استثمر موهبته الكوميدية في ترداد النكات وفي تصريف الحركات، وانطلقت حياته مع الكوميديا ليبلغ معها مكانة إعلامية ويحقق شهرة كبيرة قادته إلى أن يشرع في تقديم برنامج تلفزيوني صباهي يقوم على المحادثة، وهو ما يسمى في أمريكا ببرامج (التووك شو)، وشاء برنامجه حتى بلغ جمهوره المتابع له يومياً سبعة ملايين،

ومما يعرض له دائمًا هو التحدث بمشاكل النساء مع الرجال ومع الحب والحياة.

كانت له ثقافة الأحاديث في البرنامج معرفة بأهم الأسئلة التي تدور في رؤوس النساء الأميركيات في حياتهن العاطفية، وهذا ما أغراه بتأليف كتاب وضع له عنواناً مغرياً هو: تصرفي كامرأة وفكري كرجل، من منشورات (أمستاد) في نيويورك 2009، ومن أول يوم لكتاب تحققت له مبيعات عليا حتى صار الرقم الأول في قائمة النيويورك تايمز في الكتب الأكثر مبيعاً.

يحمل الكتاب عنواناً إلحاقياً هو: حقيقة تفكير الرجال حول الحب والعلاقات والالتزام، مع سؤال مركزي موجه للمرأة ويدور حول قضية الكتاب: كيف ترين رجالاً وتحتفظين به، وهو سؤال اكتشف هارفي مدى حساسيته للنساء اللواتي يقابلن في برنامجه الصباحي، وليس كم هو حساس ومؤثر. وهذا ما جعل صفحة الغلاف تلهب شعور أي امرأة أمريكية وكثيراً من الرجال، حيث هي قضية النساء الأميركيات -كما هو حدس المؤلف وخلاصة تجربته- وفي الوقت ذاته جاءت القضية مغربية للرجال ليعرفوا أين يضعون أنفسهم داخل هذه القضية من باب حب الاستطلاع من جهة ومن باب التعرف على مشاعر الجنس الآخر.

هذا دفع بالكتاب إلى الأمام حاملاً معه الأسئلة، وملفزاً منذ البدء بفكرة نظرية مثيرة، وهي أن تتصرف المرأة كأنثى ولكن تفكر كرجل،

وهذه وصفة سحرية أولية عن الفروق الجذرية بين الجنسين (وبكل تأكيد فإن لنا ملاحظات علمية جوهرية هنا ولكن نوجلها إلى حين)، ونقول الآن إن المؤلف قد لعب على هذه المقوله بمهارة صحفية ذكية جداً، وكعادة هذا النوع من الكتب فهو يستعين باللغة البسيطة وبالقصص والأخبار وبعرض قدرات المؤلف على الادعاء بمعرفته بخفايا المشاعر واحترامه هذه المشاعر مهما بدت ساذجة أو صغيرة أو تلقائية.

وكانت مداخله تدور حول فحص بعض التصورات الأولية مثل التفريق بين الرأي والشعور، وقد صرف على هذه النقطة فصلاً كاملاً يؤسس عبره لقضيته، وركز على أن الشعور الذي يحدث بين اثنين هو الذي يصبح أحکامهما على بعضهما، ويظل الرأي مخبوءاً تحت سلطة الشعور المتبدال، والطرفان يتحركان تحت قيادة شعور كل واحد منهمما عن الآخر دون أن يتعرفا حقيقة عن رأي الواحد منهما برفيقه. وهذا في تصوري هو ما يسبب خيبات أمل كبيرة حينما يرتبط الطرفان تحت قيادة الشعور دون كشف لحقيقة الرأي الذي سيكتشف مع الوقت ليتفاجأاً الطرفان بأنهما لا يتناسبان.

هذا قاده إلى أهم فصل في كتابه، وهو الفصل الذي يركز فيه على كشف (الرأي)، والرأي في نظر المؤلف هو ما يمثل حقيقة الرجل وعلى المرأة أن تحسم أمرها من البداية لتتعرف على رأيه فيها، وذلك لأن توجهه له خمسة أسئلة رئيسة ومصيرية، هي:

1 - ما أهدافك القريبة...؟

2 - ما أهدافك البعيدة....؟

3 - ما رؤيتك حول العلاقة، وما مفهومك لها...؟

4 - ما رأيك بي....؟

5 - ما شعورك نحو...؟

وينطلق في مناقشة الأسئلة هذه واحداً واحداً مع عودة التركيز على الرابع والخامس والتفريق بينهما، أي بين الرأي والشعور، وهو في ذلك يبحث المرأة على أن تحسّم هذه الأسئلة أولاً وتكشف عن (رأي) الرجل في هذه الأسئلة كلها قبل أن ترتبط معه في رابطة الزواج، ووسط هذه الأسئلة ستتفرع مواقف مهمة من مثل رأيه في إنجاب الأطفال وفي تكوين العائلة، مما هو تصور حاسم لتقرير مصير الزوجية.

هذه أمور قد تبدو ساذجة في المجتمعات التي تعتمد نظام العائلة والترابط الأسري، ولكن المجتمع الغربي باعتماده المطلق على الفردية ستكون هذه الأسئلة مهمة ومصيرية وسيكون الكتاب ضرورة اجتماعية ونفسية.

كتاب هاري في كتاب ينجح في مجتمع تقوم فلسفته على الحرية المطلقة للفرد بحيث يجد الفرد نفسه المسئول الوحيد عن قراراته، وبما إنه مجتمع مفتوح فإن جدول العلاقات يكون مثل جدول الخيارات، وهنا تخترع الثقافة أو صياغة جدداً، وبديلاً من نصائح الجدات تأتي نصائح المؤلفين المغامرين الذي يتبعون بحدسهم التلقائي للتعرف على دقائق الهموم الفردية فيضربون عليها وهنا تأتي الاستجابات سريعة

وشاملة لأن المشاكل الملحوظة تظل حبيسة على مستوى الفرد ولا يعلم الفرد أن غيره (غيرها) يشتراك في المشكلة نفسها، وإذا رأت المرأة الأمريكية -حسب حدس المؤلف- كتاباً بهذا العنوان فإنها ستتحرك مباشرة باتجاهه إحساساً منها بأنه قد لمس ما في داخل شعورها وأن فيه الحل لمشكلتها، وهي لن تقف عند كتاب واحد فقد يصدر غداً أو بعد غد يكون صاحبه أكثر ذكاء ودقة في اختيار عنوان يضرب على وتر نفسي حساس، وسيكون له أيضاً مبيعات كبرى تحتفل لها النيوبيورك تايمز، وتظل الثقافة تبتكر بسائلها من الأوصياء.

وفي الموضوع مزيد كلام، وكل ذلك حول ثقافة الاستشفاء التي هي المحرك الأبرز لثقافة الأكثر مبيعاً، كما سنتها الثقافة الأمريكية ثم تسربت للعالم كله في نسبة تتوافق دوماً مع ارتفاع انعزالية الفرد وتقلص دور العائلة، حيث تتفرد الحياة بالشخص لتعزز فريديته وعزلته، وتنشأ عنده الحاجة حينئذ مثل هذه الكتب التي تملأ الفراغ الثقافي وتقدم نوعاً من الآباء الجدد والوعاظ الجدد. وفيما يخص كتاب هارفي تحديداً فإن ملاحظات علمية كثيرة لابد من طرحها في نقد الكتاب من الناحية العلمية، وفيه عيوب جذرية سأناقشها في المقالة ما بعد التالية.

الإيمان يشفى

احتاج الدكتور هربينت بنسون إلى السفر إلى جبال الهمالايا والبقاء

طويلاً مع رجال الدين التبت لكي يدرس الأسباب التي تجعلهم مساملين وطيبين في نفوسهم وفي أبدانهم، وكان يحمل في نفسه المعنى التاريخي القديم الذي يؤكد على أن الإيمان يشفي، وبنسون هذا طبيب نفسي مختص وممارس في جامعة هارفرد، وأصدر كتاباً عنوانه (الاستجابة الاسترخائية) وهو الكتاب الذي حقق مبيعات كبرى وصار الأول في ذلك، ثم أتبعه بكتاب ثانٍ، هو (ما بعد الاستجابة الاسترخائية) -

. (Beyond the Relaxation Response) وقد صدر 1984.

لقد بذل بنسون جهداً مكثفاً ليضع صيغة عملية/ طبية لهذا المفهوم، وهو يدرك مع ذلك أن مفهوم الإيمان ليست له قيود، ولكنه الإيمان بالمعنى المطلق، المهم للمرء هو أن يؤمن بشكل مقنع وعميق، إما الإيمان الكبير - كما نفهمه نحن بوصفتنا الإسلامية أو يفهمه مؤمنون آخرون لهم صفات أخرى، ومثله الإيمان بفكرة ما؛ أو الإيمان بالذات والثقة بالنفس ونجاحاتها والقناعة بقيمة المرء في الوجود وصلابته أمام التحديات.

يفعل الإيمان فعله بالمرء، ولكن لا بد لهذا الإيمان من تحفيز، وقبل ذلك لا بد من اكتشاف هذا الإيمان والانتقاء إليه، والناس تغفل تحت وطأة مشاغلها عن ما لديها من إيمان، ولكل امرئ في هذا الكون إيمان من نوع ما، قد يكون كبيراً ومشهوداً، وقد يكون صغيراً يحتاج إلى كشف وتعرف، وهو حصانة كبرى ومساعد كبير، والغفلة عنه تجعلنا في العراء، ومن استعاده تحصن به للمواجهة.

ومن رحلة بنسون إلى التبت تولد كتاباه عن (الاسترخاء) وراح في كلا الكتابين - وأهمها عندي الثاني - يشرح ويبحث عن المشروع، ولقد قرأت الكتاب الثاني بمتعة وتمعن، واستفدت منه، ونقلت الفائدة إلى عدد كبير من الأصدقاء والمعارف الذين مرت بهم وتمر بهم حالات يحتاجون فيها إلى الاسترخاء، ولقد وجدت أن قراءة الكتاب كاملة ليست ضرورية، وأهم ما فيه يتلخص في ربع صفحة، وهي التي تعودت دائمًا على تصويرها كما هي للأصدقاء، مع ترجمتها للذين لا يعرفون الإنجليزية، وهي كالتالي:

- 1 - استلقي في مكان مريح - يكون جسدك فيه مرتاحاً كله ولا تحس بأي ضغط على أعضائك - ولا بد أن يكون المكان هادئاً بعيداً عن أصوات المزعجات، ولا بد من إغلاق الهاتف والتأكد من عدم وجود أي شيء قد يقطع خلوتك الصامتة تمام الصمت، ولمدة عشرين دقيقة متصلة دون قطع أو إرباك.
- 2 -أغلق عينيك، واسمح لأعصابك بالاسترخاء التام دون شد أو ضغط.
- 3 - ركز على تنفسك، وتنفس براحة وبشكل طبيعي، وأطلق عينيك إلى داخل جسدك حتى لكي ترى الهواء يدخل أنفك متوجهًا إلى بطنك (وليس صدرك)، أي اسحبه إلى داخل البطن، ولا تقف به عند الصدر ولتشعر بانتفاخ بطنك بالهواء، ودع عينيك تسيران مع الهواء الداخل إلى جوفك بهدوء وراحة، وليدخل الهواء من الأنف متوجهًا للبطن - لا

للصدر- ثم ليخرج من الفم، في تعاقب أكيد من الأنف دخولاً ومن الفم خروجاً، من بعد أن يكون ملأ البطن بالهواء، وهذا يحسن أن يأخذ وقتاً معقولاً، بحيث لا تضغط على نفسك ولا تسارع في التنفس، لأنك ستحتاج إلى هذا الوقت كما سترى في الخطوة التالية.

4 - اختر جملة أو كلمة يكون لها معنى خاص بك، وقد رأى بنسون أن المؤمنين بالله يختارون كلمات لها علاقة بهذا الإيمان، وعند المسلمين وجد كلمات مثل: الله أكبر، أو سبحان الله، أو الحمد لله، أو ما يختاره أي مسلم حسب ارتياح قلبه، بينما أصحاب الديانات الأخرى اختاروا كلمات تتفق مع ثقافتهم الدينية، واختار غيرهم كلمات تعني لهم شيئاً خاصاً وعميقاً، وهذا هو الشرط، أي أن تختار جملة أو كلمة تعني لك شيئاً مريحاً وتستجيب له أعمق مشاعرك، مع شرط واحد وأكيد، وهو أن تكون الجملة قصيرة ويكفيها الوقت الذي كان فيه تنفسك في داخل جوفك، وأنت تحتاج إلى ترديد هذه الجملة مع دخول الهواء إلى خروجه، أي أنك ستقولها في خلال العشرين دقيقة مرات ومرات حسب لحظات دخول النفس وخروجه بحيث لا تزيد خارج لحظة التنفس.

5 - لا تسمح للهواجس أن تباغت خلوتك هذه، وكلما جاءك هاجس فقل له: اذهب الآن وعد لاحقاً، واحرص على التركيز الشديد، مرسلاً عينيك المغمضتين ومركزاً على جملتك المختارة داخلة مع النفس وخارجة معه، واستمر على هذا في جلسة استرخائية مريحة لجسدك

وأعصابك لمدة عشرين دقيقة مرتين في اليوم.

يرى الدكتور بنسون أن أثر هذا التمارين على الجسم يظهر بعد مدة من الممارسة لا تقل عن أسبوعين، ولذا لا يحسن استعمال النتائج، ويفوكد في كتابه أن التجارب أثبتت نجاحات كبيرة، وقد تمت التجارب في هارفارد، وتعالج أناس من الضغوط النفسية ومن أمراض عضوية أيضاً من مثل ارتفاع ضغط الدم والأرق والصداع، والتتوترات العامة، بل إنه ذكر حالات شفقت من أمراض خطيرة، وأخرى مستعصية.

كل هذا يقوله المؤلف تحت مظلة المعنى القديم الكبير في أن الإيمان يشفى، ولكننا نحتاج إلى تفعيل الإيمان في نفوسنا، وارتئي هو هذه الطريقة لتساعد على تقوية الحس الذاتي وإيمان الإنسان بنفسه والدخول إلى أعماق ذاته عبر تحرير الذات ولو لدقائق في اليوم حيث تأخذ النفس إجازة قصيرة بعيداً عن ضغوطها اليومية المتكالبة عليها. لقد استفدت أنا شخصياً وأفدت آخرين من عرفت، ولا شك أن عنون الله ميسور لنا إذا أحسنا طريقة طلبه وأحسنا الاتجاه إليه، لكننا بكل تأكيد نحتاج إلى أنواع من التدريب والتوجيه، وفي لحظات المرض تضيع بوصلة الإنسان ويحتاج حينها إلى من يدلله على الطريق ويساعده في الوجهة .

وفي الموضوع مزيد حديث سيتتابع القول فيه فيما يأتي من مقالات.

العنوان بوصفه مادة تسويقية

(هل العقل رجل...!)

- ١ -

استعرضنا ثلاثة كتب بوصفها أمثلة على ما صار يسمى بالأكثر مبيعاً، وثقافة الأكثر مبيعاً تعني الأكثر استجابة للرغبات العمومية لدى الناس، ولن نتعرّف على حقيقة هذه الكتب إلا عبر التعرّف على ظروف الاستجابة، فالذى يجعلها أكثر مبيعاً هو في ملامستها لدافع ذاتي عند مستقبليها، وسنجد أدلة على هذه الدوافع إما عبر الاستطلاع وقد فعلنا هذا في مقالنا عن كتاب (لا تحزن) أو عبر خصائص أخرى كما أشرنا إلى عدد من ملامحها الأساسية المؤثرة في صناعة هذا النوع من الكتب، وبقي أن أشير هنا إلى الدور الذي تلعبه العناوين (وبعضهم يفضل أن نقول عنوانات)، وهو دور مهم نراه في تمعننا لها.

ونبدأ بكتاب (لاتحزن) للشيخ عايش القرني، وهو كتاب اعتمد على هذه الجملة: لا تحزن، بما لها من شحنة نفسية ثقافية في الثقافة العربية، والإحالـة هنا إلى حادثة الهجرة الكبرى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع صاحبه أبي بكر حيث فرّا من مكة ولاحقتهما جحافل قريش بخيلها وقضيضتها، مع مكافأة كبيرة لم يمسك بها، وكانوا يختبئـان في الغار اتقـاء للمطاردين، ولم يـك بينهما وبين العدو المطارد

سوى نظرة عين، ولو نظر أحد الفرسان إلى حوافر قدمي فرسه لرأى المختفين في الغار، وهذا ما همس به أبو بكر لصاحبه، حيث جاءه الرد: «لا تحزن إن الله معنا»، وهذه جملة تاريخية محفورة في ذاكرة الثقافة العربية، وترتبط ارتباطاً دالياً وثيقاً وملازماً بجملة رديفة صاحبت هذه الجملة بتلامح نفسي عميق، وهو جملة: فأنزل سكينته عليه، وهذا جرى توثيق الصلة المعنوية بين: لا تحزن، ونزول السكينة. وفيما بين الجملتين ترقد ذاكرة لها عمق تاريخي ونفسي متصل.

لقد جاء كتاب القرني ليجر الذاكرة القرائية باتجاه هذا المعنى العميق، وكل امرئ حزين سوف يتبادر إلى ذهنه هذا الترابط التاريخي بين مواجهة الحزن واصطياد السكينة التي هي مطلب أي مكلوم، وهي لحظة المواجهة الوعادة، ولا شك أن العنوان المختار هنا قد فعل مفعوله النفسي في تحريك الأمل بعيين الناظر للكتاب ومعه تتحفز الذاكرة باحثة عن سكينتها المفقودة، مع تمثل تام لحال القصة الأولى وحال الخوف الأول وحال الحزن التأسيسي الذي كان يهدد مصرir الدعوة كلها، ولكن الله أنقذ الرسالة بنزول السكينة ومن ثم تمت صناعة التاريخ.

- 2 -

وإن كنا ضربنا مثلاً على الدور الإيجابي لوظيفة العنوان في مثال (لا تحزن) فإننا نعطي مثلاً آخر سلبياً هذه المرة، وهو عنوان كتاب

هاري (تصريفي كامرأة وفكري كرجل)، وهو عنوان لعب على الخدعة الثقافية النسقية التي تنسب العقل للرجل وتخصه بصفة الفكر، وتفرد العاطفة للنساء، وهي خدعة ثقافية تعتمد على ما نسميه بالعمى الثقافي، حيث ينساق البشر نحو معانٍ يكونون قد صنعواها في القدم حتى تمكنت من الاستقرار الزماني والتواتر الروائي، وكل وهم في الثقافة إنما يتركز ويصير بمثابة الحقيقة إذا توافر له شرطان، هما طول التعاقب الزمني، ثم تواتر القول فيه، ولقد مر على البشرية أزمنة سحرية وممتدة ثقافياً وتاريخياً تقول إن العقل رجل، وهو قول ممتد في الزمن ومتواتر على الألسنة، وبسببه اتخذ هاري عنوان كتابه، وكأنه يقدم هدية سحرية للنساء بأن يحصلن على الكنز العظيم الذي ظل بعيداً عنهن، وهو هنا يعدهن بحيلة شيطانية ماكرة لكي يحصلن على الهدية العظمى فيفكرن كالرجال، ولا شك أن هذا العنوان قد خدع الكثيرات لأنهن ضحايا التنويم الثقافي والعمى الفكري، وهو في الوقت ذاته يعزز غرور الرجال بأنهم أهل العقل والفكر.

لم يخطر ببال المؤلف أن يراجع مقولته لأنه ليس من أهل الثقافة المتخصصة، وهو رجل من أهل الكوميديا ورجل علاقات عامة لا أكثر، كما لم يخطر ببال قارئاته أن يناقشن عنوانه هذا لأن اللواتي يقرأن الكتاب هن عادة من ضحايا المجتمع الذكوري، ويجذبن الوعد بمعرفة الطغاة والتعرف على أسلحتهم وسر قوتهم، والكتاب يوهنن بذلك.

ولا شك أن الكتاب يقوم على عنصرية ثقافية ضد النساء، كما أنه يقوم على وصاية ذكورية واضحة، بمثل ما يستغل ظروف المكلومات والمكلومين أيضاً ويقدم لهن قشة للنجاة مثله مثل ما يسمى بالطب البديل وطب الأعشاب والطب الصيني والشعوذة والتنجيم وغيرها من الفنون التي تروج بين المحتاجين المكلومين ولا لوم عليهم، ومن ذا يعاتب مخنوقاً إذا انتحباً -كما هي كلمة نزار قباني-.

وأخطر ما في هذا النوع من الكتب هو أنه يمر دون نقد، والنقد عادة لا يقفون عند هذه الكتب استهتاراً بها من جهة، وبسبب كثرتها المفرطة من جهة ثانية، وهي كتب عادة لا تعيش طويلاً ويحل غيرها محلها في دوامة تجارية لا نهاية لها، وهي مظهر ثقافي عصري، كأحد مظاهر الثقافة الجماهيرية، وهي نوع يقوم على توظيف البعد النسقي للثقافة، ويتخذ من رغبات النفس المقموعة وسيلة للنفاد، وكم تعجبت فعلاً حينما رأيت في بعض مناسبات بعض نساء كنت أعدهن من المثقفات الوعائيات ووجدهن يمتدحن كتاب هاري ولا ضير من ذلك إذا كنا نريد منه المتعة أو التعرف على واقع الحياة البشرية أو تعلم بعض ما فيه، ولكن يجب لأن يفوت علينا إدراك ما فيه من ضرر ثقافي ومن تعزيز للنسق وتأكيد على الوصاية من جهة وعلى إشاعة حال العمى المعرفي من جهة ثانية.

ويكفي أن نتذكر أن كتاب هاري يضع ثنائية ثقافية جاهلية ونسقية تقول إن الشعور امرأة وإن الرأي رجل، ويحاول في الكتاب أن يدرس

المرأة كيف يكون لها رأي وكيف تصنع الرأي عبر خمسة أسئلة بسيطة وبدائية، ولقد استعرضتها في المقال الرابع من هذه السلسلة، ولا شك أن الدفع بالمرأة لكي تصدق كلام هارفي وتبسيطاته سيجر معه حزمة من الأخطاء النفسية والاجتماعية لا يمكن تصورها إلا بعد حدوثها، وهو كلام يشبه الإعلانات وإغراءاتها، والثقافتان متماثلتان بكل تأكيد. وكما نتساهل مع أنفسنا فنسمح لها بأن تندفع بالإعلانات مثلًا أو تستجيب لإغراءات الموضة؛ فإننا أيضًا ننساق وراء الكتب المسممة بالأكثر مبيعاً ونسمح لأنفسنا بأن نصرف مالنا وبعض وقتنا للتمتع بالحش والوشایة والإشاعة والتزجيجية السريعة والكتب السهلة والروايات الفضائحية، وهكذا مما هو تافه في رأي الفكر الجاد ولكنه مع ذلك -يظل ضرورة بشرية بما إنه مصدر للمتعة، ولنتذكر كتاب الأغاني مثلًا، وهو كتاب يمكن أن نقول عنه إنه من نوع الأفضل مبيعاً، حيث شاع في ثقافتنا من يوم صدوره حتى اليوم، وهو كتاب في المتعة والحش والسواليف والحكى، أي في الثقافة الجماهيرية وثقافة التسلية، وأينه من كتب الخليل وابن جنی والغزالی مثلًا، ولكن لكل من هذه وقت وكل من هذا حالة، والمرء يقف عند هذا وعند ذاك، والثقافة -أي ثقافة- لن تخلو من هذا جمیعه، وكما نجد أفلاطون وأرسسطو عند اليونانيين فإننا نجد الإلياذة أيضًا، وقد قال سوفوكليس عن ثقافة الاستحمام وثقافة المصارعة، حيث في الأولى استرخاء ومتعة وفي الثانية جد وتدريب حربي، وكان يستنكر على شباب آثينا تفضيلهم

الاستحمام على المصارعة، وهو استنكار فيه مبالغة في الطهورية المفترضة، بينما البشر محتاجون لهذا وذاك ولا تقوم الحياة والثقافة إلا بتبادل الوظيفتين معاً، وظيفة الجد ووظيفة المتعة.

لقد أتى هارفي عبر كتابه متقلداً بقلادة النسق الثقافي حتى بدا وكأنه يعرف عن المرأة أكثر مما تعرف عن نفسها، مثله في ذلك مثل ما يشيع بأن نزار قباني عبر عن النساء بأبلغ مما يعرفن عن أنفسهن، وهذا لهم ثقافي خطير سميته من قبل بالعمى الثقافي (كتاب: النقد الثقافي، الفصل السابع). ولو افترضنا أن كتاب هارفي من تأليف امرأة فإننا لن نرى عنواناً كعنوانه بأي حال من الأحوال، وهذا ما يدفع العجب من شيوع الكتاب بين النساء ومن إعجاب بعضهن به، وهو ما يفسر لنا مدى خطورة النسق وتغلغله في الذهن الثقافي وتمكنه منه حتى ليحمل المرأة والرجل تصورات تتناقض وينسخ بعضها بعضاً. ولقد لعب هارفي على هذه الحيلة وصارت فعلاً أحد أدوات تسويق الكتاب وشيوعه.

التحفيز الثقافي

في كل ما استعرضته في المقالات الماضية من أمثلة عن الكتب التي حظيت برواج عريض، وصارت الأكثر مبيعاً، نكتشف أن هذه الثقافة قد صارت في الواجهة اليوم، ومثلاً ما تنتشر ثقافة الصورة وتحتل درجة عالية في التأثير والرواج فإن قوائم الكتب الأكثر مبيعاً هي أيضاً في

الصادرة البصرية، وتتشابه الصيغتان من حيث إن الصورة تمحوها صورة أخرى، وكل صورة تبرز للصادرة وتضرب في أعماق التأثير الجماهيري العريض فإنها ما تلبث أن تتراجع تدريجياً حتى تنتهي للتلاشي حتى لتوشك أن تغيب عن الذهن كلياً وتحل أخرى محلها، وكذا حال الكتب الأكثر مبيعاً، فنحن لو استعرضنا ملحق الكتب في صحيفة نيويورك تايمز، وهو الملحق الرائد في مجال تحديد وجهات الكتب وكشف مساراتها وإشاعة شهرتها وتسمية البارز منها؛ لو استعرضنا هذا الملحق لأريناكم هي كريمة المرور، فالكتب التي كانت حديث الصحافة قبل بضعة أشهر لم تعد كذلك اليوم، ويحل محلها كتب أخرى تكتسب الصفة نفسها، وستنتهي نهاية مماثلة أيضاً بعد بضعة أشهر بل إن بعضها لا يبلغ الشهور ويتراجع في أسابيع، ولسوف تنبهر فعلاً لو أحصينا عدد الكتب التي وصفتها الجريدة بأنها رقم واحد في الأفضل مبيعاً، وسنجد رقماً كبيراً من حصيلة كل عام مما بالك بعشرة أعوام.

ولكن الكتب تتغير بمؤلفيها وعنوانينها غير أن الموضوعات تظل متتشابهة وقد نقول إنها واحدة لا تتغير، وهي في الغالب مسائل في النسويات من جهة وفي الفضائحيات وفي الجرأة وكسر حدود المحظوظ من جهة أخرى، وأي كتاب يضرب في أحد هذه الاتجاهات فإنه يتأهل من حيث المبدأ للتحرك في سلم الأفضليات التسويقية، وهناك بعض مؤشرات عامة تساعده في تسهيل هذه المهمة، ومنها:

1 - المؤلف، حيث يقوم اسم المؤلف كعامل مهم في لفت النظر الأولى، ونحن في أمثلتنا السابقة رأينا ثلاثة مؤلفين لكل واحد منهم أسلوب تدعو الجمهور العريض للانتباه، فالشيخ عايش القرني شخصية عامة مر عليها وحولها كلام كثير، شاع به الاسم وصار موضع حديث وموضع تنبه، إضافة إلى كونه داعية وواعظًا له جمهوره العريض عبر وسائل متعددة، أما هربرت بنسون فهو طبيب نفساني ارتبط اسمه بهارفارد، وهي كلمة سحرية في الثقافة الأمريكية، ومجرد إطلاقها كوصف لشخص بأنه أستاذ في هارفارد فإن هذا كفيل بجعله مرجعية مطلقة ومسلماً لها وبها. وفي حالة ستيف هارفي فقد ذكرنا أنه ممثل كوميدي ومقدم برنامج تلفزيوني بلغ عدد متابعيه سبعة ملايين مشاهد.

2 - الموضوع، وهي مسألة حساسة جداً، وهي عادة تنتهي للحدس الذكي، أو لضربة الحظ الموفقة، وذلك حينما يقع المؤلف على موضوع يلامس نقطة ثقافية حساسة في المجتمع، وفي حالة كتاب (لاتحزن) فإن الموضوع لامس حالة اجتماعية يبدو أنها في غفلة عنها بسبب وراثتنا للسکينة الاجتماعية المعهودة فيما من قبل، وهي إحساسنا أننا بخير وأن جيلنا الصاعد هو مثل آبائه في القوة والصلابة والإيمان والرضا بما يجري وما يأتي، وهذه معانٍ تمثل الصورة المسلم بها عن المجتمع ويرى المجتمع ذاته تحت هذه المعانٍ، غير أن الحياة تغيرت مع الجيل الشاب وصارت هناك حالات من الفردية والاستقلالية تزداد

تدريجياً وتجعل الشاب يشعر بأنه وحيد في مواجهة الكون، وليس مسلحاً بعدة كافية للمواجهة، وفي الوقت ذاته لا يجد جواباً اجتماعياً وأسررياً يأخذ مخاوفه ووساوسه مأخذ الجد، وكل ما يسمعه فيما لو باح بمشكلاته هو نصائح شبه قمعية من مثل: اترك عنك الوساوس وتعود من الشيطان، وخلك رجال وانتبه لدراستك...إلخ.

في وسط هذه الغفلة جاء كتاب (لاتحزن) ليكون دفتراً شخصياً يعد بكشف الهموم وجلب السعادة، وهي كما قلنا ثقافة الاستشفاء. وكذا الأمر مع الكتابين الآخرين وقد أشرنا لهما في المقالتين الماضيتين.

3 - اللغة، من خصائص كتب الأكثر مبيعاً البساطة اللغوية والأسلوب السواليفي الذي يعتمد على القصص والحكايات وضرب الأمثل، مع شيء غير قليل من الاستطراد الثقافي حتى ليجد القارئ نفسه في بعض هذه القصص وهذه الاستطرادات لدرجة يشعر معها وكأنه المعنى شخصياً بالكتاب، وهذا يعمق علاقته بالكتاب، ومن ثم تعلقه بهذا النوع من الثقافة وربما يدمن عليها حتى ليشتري كتاباً أخرى تلامس الهدف نفسه، ولذا فإن زبائن الكتب الأكثر مبيعاً في الغرب هم أنفسهم في كثير من الأحيان، والداخلون للتو يكونون بمواصفات مماثلة لأولئك.

4 - الاستجابة القرائية، يغلب على زبائن هذه الكتب أنهم من فئة غير متخصصة في موضوع الكتاب، ومعظمهم ليسوا من قراء الكتب بالمعنى العلمي والثقافي، ولن تجد أساتذة ولا طلبة علم النفس مثلاً

يلهثون وراء كتاب هارفي بكل تأكيد، كما أن بنسون لن يكون عندهم منزلة فرويد، ولن يصنفوه بالمتشف العظيم ولا بالرائد، ولن يصفوا عمله بأنه نظرية في علم النفس، ولكن كتابه كتاب شعبي يقرؤه غير المختصين ممن يعانون من مشاكل لم يجدوا لها حلًّا مهنياً فيتجهون لهارفي وبنسون للمساعدة والتنفيذ، وهي تفيد ولا شك، خاصة مع اقتناع القارئ بوجهة نظر المؤلف. وفي حالة كتاب (لاتحزن) فقد سمعت من الناشر قصصاً عن أناس من علية القوم وجدوا في الكتاب عزاء وسلوة عن أحزانهم، والحزن هنا لا يفرق بين فقير ووجهه، ولذا يضرب في كل اتجاه، وإذا حضر احتاج المهزون إلى سلوى تعينه، ولا شك أن الكتاب يوفر ذلك، ولكننا نقول إن هذه ليست مسألة ثقافية والذين يتصرفونه لا يفعلون ذلك لحفظ الأشعار والحكم التي فيه ولا لتعلم لغة التعبير الفصيح ولا حتى للمتعة القرائية، إنهم يفعلون ذلك من باب الاستشفاء والتطبيب بالكتاب، وميزة الكتاب هي أنه وقع على جرح عميق مخبوء فتفجرت ينابيع النظر نحوه.

ولقد قامت الدار الناشرة بترجمة كتاب (لاتحزن) إلى اللغة الإنجليزية، ولن يكون لكتاب انتشار في هذه اللغة لأنه يعتمد كلياً على المهزون الديني والوجданاني للقارئ العربي المسلم، ولذا فلن تجد قراء في الإنجليزية لهذا الكتاب، اللهم إلا إن كانوا مسلمين، وهؤلاء فقط هم الذين يمكن أن يستوعبوا رسالة الكتاب، وهذه نقطة مهمة في كلامنا عن خصائص الكتب ذات المبيعات العليا، وهي أن الكتاب لا بد

أن يضرب على أعماق الوجدان النفسي للقراء وإذا ضرب على الجرح العميق واستخدم الأسلوب المناسب، لغة ومضموناً مع مرجعية من نوع ما للمؤلف، فإنه سيتحقق الرواج، وإذا غابت هذه الشروط تلاشت معها فرص الرواج، وفي الإنجليزية كتب كثيرة لا تحصى حول مواضيع الاكتئاب والحزن والنفسيات بعامة، وتحمل أسماء لشخصيات لافتة فعلاً، مما يجعلها متشبعة ولا يمكن النفاذ إليها إلا باستخدام أدوات ثقافية مماثلة ومنافسة، ولذا فإن (لاتحزن) هو كتاب في العربية ينهل من الوجدان الديني والنفسي للقارئ العربي المسلم وهذه هي الوصفية الأساسية للغة الكتاب وموضوعه، ولو كان عندي وقت لعراضة اللغة الترجمة ملي عليها ملاحظات كثيرة.

وتبعاً لما قلناه عن مخاطبة الوجدان الثقافي العام فإننا نلاحظ أيضاً رواجاً كبيراً لكتب الفضائح وكشف الأسرار للسياسيين والمشاهير، وللروايات الفضائحية، وهذا انتشار يصدر عن عما نسميه في النقد الثقافي بالاستجابة النسقية، وهو هنا يخص ميل البشر الفطري نحو الفضول النفسي، في التلذذ بالإشاعات والحس والنكت وإذاعة الأسرار، وهو طبع بشري متأصل، ويأتي هذا النوع من الكتب ليجيب على هذه الرغبات ولذا تشيع هذه الكتب وتتدخل في قوائم الأكثر مبيعاً، وهي في أمريكا كثيرة جداً وتعمر رفوف المكتبات وتغطيات الصحف ولغطتها الدائم، ومثلها كتب التنجيم والضرب على الأسرار والأوهام مما هو صور لتجليات الأساق وتعبيرها عن نفسها.

وأخيراً أقول إن مصطلح (الأكثر مبيعاً) هو مصطلح في التسويق وفي نسق الاستجابات، وليس مصطلحاً في القراءة والثقافة والفكر، ولكن من هذين مجاله وعاليه وخصائصه، ولا يصح علمياً ولا منهجياً أن نضع هذا بجوار ذاك.

الصفحة البيضاء (ما يعرفه الرجال عن النساء)

كان لأن بييس قد طرح كتابه العالمي (لغة الجسد)، وهو الكتاب الذي تربع على كرسي المبيعات عالمياً، وحقق أرقاماً مذهلة في البيع والانتشار، ثم ألف (بالاشتراك) كتابه الآخر ذا الشهرة أيضاً، وهو بعنوان (لغة الكلام ولغة الكتابة)، وهذه كلها تأسيسات ثقافية دفعت به إلى مغامرة ثقافية كبيرة، وهي أن يكتب كتاباً عما يعرفه الرجال عن النساء، وأخذ على عاتقه أن يقول الحقيقة أو (حقيقة الأمر)، كما ورد في العنوان الجانبي للكتاب، وحقيقة الأمر هنا مخيفة ومذهلة، ولذا جاء الكتاب ليواجه المسألة مواجهة صارمة وطاغية في طريقة الكشف والاعتراف، وهو باحث معني بالشأن الثقافي ومعني بمسألة العلاقة بين الجنسين، ويهمه أن يكون صادقاً وصريحاً، وهذا شرط أخلاقي مثلاً هو شرط معرفي.

عبر هذا الشرط جاء الكتاب حاملاً للعنوان، وترجمته حرفيًا هي كالتالي: (كل ما يعرفه الرجال عن النساء: حقيقة الأمر)، وأنت إذا رأيت الكتاب في الأسواق ستتجده مختلفاً بورق شفاف تقرأ عبره العنوان

وترى رسمة الغلاف واسم المؤلف مع رسمات معبرة وموحية، وعلى ظهر الغلاف سترى اسم الناشر والتصنيف المكتبي للكتاب، وسرع الكتاب، وإذا كنت مثلي مهتماً بأمر المرأة والثقافة وسبر الأنساق الثقافية فأنت ستتدار إلى شراء الكتاب.

وأول ما يفعله مشتري الكتاب هو أن ينزع الورق المطوي على الكتاب تمهدأً لقراءته وتصفحه، وهنا يحدث ما لا يمكن أن يكون في حسبانك أبداً، خاصة أنك قد دفعت مالاً من جيبك الخاص لتعرف كل ما يعرفه الرجال من أمثالك عن النساء، وهنا ستكتشف المفاجأة العلمية الصارخة، وهي أن الكتاب عبارة عن ثلاثة صفحات بيضاء، نعم بيضاء لا شيء فيها، وأنت هنا ستقلب الصفحات واحدة تلو أخرى، وستجد نفسك في صفحة بيضاء وراء أخرى، حتى نهاية الكتاب، من دون عناوين ولا فهارس ولا كتابات من أي نوع، ولا تعليق ولا رأي. بياض في بياض، وفراغ لغوي وذهني، وهذه هي حقيقة الأمر كما يريد لأن بييس أن يقول لك ولنفسه وللجميع من رجال ونساء.

إنك تشتري هنا ورقةً بيضاء قد غلفته دار النشر بين غلافين أنيقين ثم وضعته في تغليف شفاف محكم الربط من أجل أن تشتري هذه البضاعة المجهولة والمفاجئة وتترك لتكشف الأمر وحدك، وربما تنفجر ضحكاً حينها وقد تغضب على ما صرفته من مال، وقد تتتعجب وربما تستنك، ولكن الأمر كان محسوماً من الناحية القانونية فالكتاب يحمل تصنيف علمياً وهو مسجل في عدد من المكتبات العلمية

والمؤسسات الجامعية، وعليه اسم المؤلف وحقوقه العلمية والمالية مرصودة عالمياً، وإن خلا من أي كلام فإنه يبدو مكتنزاً بالمعاني.

هكذا فإن مؤلف كتاب لغة الجسد وصاحب الأفكار حول لغة الكلام ولغة الكتابة قد وجد نفسه فقيراً من الناحية اللغوية وتبيّن له أنه عيي وأن الثقافة عاجزة عن مده بمادة تعينه على تسوييد ورقات كتابه، وكشف أن جهل الرجل بالمرأة خطير جداً حتى لا يجد في هذه الجهة أي بارقة لاستحلاب الكلام، فقرر كشف الأمر عبر اللالكلام، وجاء الكتاب وكأنما هو لغة من لغات الجسد، حيث تقف الصفحة مشهرة عليها وعجزها وكاشفة عن العنة الثقافية في أمر هو من أخطر الأمور.

هذا سنستذكر كتاب هاري كما ناقشناه من قبل حيث ينطوي ذلك الكتاب على دعوى معروفة بأن الرجل يعرف عن المرأة أكثر مما تعرفه المرأة عن نفسها، وكان من السائد في ثقافتنا العربية الدعوى بأن نزار قباني في شعره قد عبر عن المرأة أكثر من تعبيرها عن نفسها، وهي مقوله تتردد بين النساء ومنهن بعض المثقفات الكاتبات مثلما تتردد بين الرجال، وهي دعوى واهمة تقوم على ما سميت بالعمى الثقافي، وقد أفضت في هذه المسألة في كتابي (النقد الثقافي - الفصل السابع).

إن ما يظننه الرجل في أنه يعرف المرأة هو ظن واهم وحقيقة الأمر -حسب تعبيرات لأن بيس- أنه يجهلها فعلاً، وأنه يندفع دونوعي على التعامل معها حسب تصوره الذكوري للكائن البشري، وقليلًا ما يميز الرجل بين سمات وخصائص الكون الأنثوي وتلك الخاصة

بالمذكرة، وتجري التوهمات تبعاً لذلك، ومن الحق أن نقول إن المرأة تجهل أموراً كثيرة عن الرجل ولذا تقع في لعبة الخداع كثيراً لأنها تميل إلى تصديق دعاويه وتقبل نظريته وتأخذه مأخذ القبول ثم تكتشف بعد ذلك أنها مخدوعة به، وهذه صيغة متواترة تتعدد وتتكرر بشكل مطرد، ويأتي رجال مثل صاحب كتاب (تصريفي كامرأة وفكري كرجل) ليضع وصفات شعبية لتخليص الورطات وفك الأزمات.

إن ما بين الجنسين هي صفحات بيضاء، كان لأن بيس صريحاً وصادقاً في كشف جانب منها، وليس كالمرأة لكشف عالم الأنوثة وعلى الرجل الاعتراف بحقيقة الأمر.

من أخطر عيوبنا الثقافية هو تصورنا لغيرنا كما نتصور أنفسنا فنقيسهم بمقاييسنا، ونحو كعرب ومسلمين نشتكي دوماً من تصور الغرب لنا ونرى أنه تصور غير واقعي وأنه تعسفي ونمطي، وهذا صحيح، ولكن علينا أن نعترف أن تصورنا للأوربيين هو أيضاً تصور تعسفي واختزالي، ومثله تصور بعضنا البعض من فئات وطوائف وطبقات، مثله مثل تصور الرجل للمرأة وتصور المرأة للرجل، وكل يقيس الآخر حسب مرآته الداخلية، ويندر أن يسمح للصورة الخارجية المحايدة بأن تتسلل إلى ذهنه وتأخذ دورها في التشكيل والتجسد بصيغة واقعية تستبطن كل جوانب الصورة وإمكاناتها الدلالية والتلقائية.

إن اللعبة الثقافية من أخطر اللعب البشرية، وهي أخطر من الحروب ذاتها، بل إن من يصنع الحروب ويوسس لها هو التصورات الثقافية

النسقية التي تفرز البشر بين محورين: محور الخير وهي النحن دائماً ومحور الشر وهو الآخرون دائماً، ونستطيع تذكر حماسيات الشعر الجاهلي ومعها جورج دبليو بوش، والفيلسوف الوجودي الكبير سارتر وكلمته: الآخرون هم الجحيم.

وكم هي صورة كاشفة كلمة: المؤمن مرأة أخيه، كما ورد في الحديث الشريف والتي تعني أن المؤمن ليس مرأة نفسه، وهذا هو معناها الضمني العميق، وإذا صار المرء مرأة نفسه فإنه إلى النسقية أقرب. وكم هم قلة نادرة أولئك الناس الذين يعملون بمنطق هذا الحديث فيزنون أنفسهم حسب ميزان الآخرين فيهم ويقبلون ملاحظات ونقد غيرهم لهم وتصديق الصورة الآتية من خارجك بدلاً من الذوبان النرجسي في صورة الذات عن ذاتها. وينتهي بنا المطاف أن نعترف أن دعواانا الكبرى ما هي إلا صفحات بيضاء لم تسودها الكلمات بعد.

ختاماً أود أن أذكر الزميل الدكتور محمد أبا حسين -رحمه الله- حيث كان سبباً في حصولي على كتاب لأن بيبي، وأحضره حينما أوصيته عليه، وأنذركه وأذكر أيامه معنا في القسم وما له من أثر علمي وأخوي لا يعتريه النسيان، عليه رحمة الله وغفرانه.

رُفوف المكتبات (رأسمالية الثقافة)

في منتصف السبعينات ظهرت في بريطانيا بدعة جديدة حيث طرحت

المكتبات العامة فكرة استثمارية تقول إن استعارة الكتب من قبل القراء هو عمل استثماري، فالقارئ إذا استعار الكتاب لبعض الأيام فإنه يستفيد من الكتاب في تحصيل الأفكار وتعلم النظريات إضافة إلى ترجيته لبعض الوقت في المتعة والتسلي بالقراءة، وهذا كله بسبب ما في الكتاب من مادة هي مصدر كل هذا الإمتاع ومصدر كل تلك المعرفة، وقد جاء هذا من فكر المؤلف ومن كدحه وعرقه البدني والذهني، وهنا جاءت الفكرة بفرض مبالغ مادية يدفعها القارئ حسب عدد أيام الاستعارة المنزلية للكتاب، وكان المبلغ حينها بمعدل (بنس) عن كل يوم، ويرصد المبلغ لمصلحة المؤلف. (البنس يعادل ست هلات).

كانت تلك بمثابة ثورة مضادة، وهي نقلة خطيرة باتجاه الرأسمالية الثقافية، وهي نوع من الرأسمالية غير المعهودة حينها في بريطانيا، وكانت بريطانيا في ذلك الوقت تجمع بين اشتراكية اجتماعية، ورأسمالية مقننة، حيث النظام الرسمي رأسمالي، ولكن الغالب على السلوك الاجتماعي والثقافي هو الطابع الاشتراكي، من حيث حقوق الشعب في الصحة والمسكن والدراسة والثقافة، وكانت الثقافة مجانية في معظم أمورها من مثل دخول المتاحف وتتوفر المكتبات العامة مثلها مثل المراكز الصحية والضمائن الاجتماعي وغيرها. ولكن رياح الرأسمالية كانت تهب شيئاً فشيئاً لتشمل أمراً كان تلقائياً وهما هو يصير استثمارياً ولا شك أن (بنساً) واحداً في اليوم هو مبلغ بسيط، ولكنه كان يشير إلى تنامي تصور كان يتشكل ويفترض أن الفكر استثمار وأن العقل

والخيال هما بضاعة يحق لصاحبها أن يدخل بها السوق ويكسب عبرها مثلاً يكسب التاجر في دكانه والصانع في مصنعته.

هي رياح في التغيير كانت تهب من جهة الغرب، من أمريكا، حيث تعزز الفكر الرأسمالي هناك، وقامت أمريكا في نهضتها كلها على تمثل قانون للفوز والنجاح، وعلىأخذ كل شيء بوصفة سلعة، حتى الوقت، مما جعلهم يفرضون قيمة مالية للنصيحة والمشورة، وهذا فكر ووقد من حيث الأصل، وإذا استفدت من فكر أحد ما أو من وقته فلابد أن تدفع مقابل ذلك، مثلاً تدفع للبضاعة وللآلة.

في الماضي كانت الكتب هبة جماهيرية، وكانت المحاضرات والندوات مفتوحة ومشاعة، وكان أساتذة الجامعة يعطون أحاديث تخصصية وعامة في وقت الغداء حيث تكون الدعوة مفتوحة تحضر مع طعامك وشرابك وتجلس على كرسي تستمع إلى نقاش في كل قضايا العلم والمعرفة بلا قيود ولا شروط، ومثلها كان قسم الدراما في الجامعة يقدم مسرحيات شكسبير مجانية حيث يؤديها طلبة القسم كتدريب لهم وكمادة للتخرج، ولقد حضرت عدداً منها في الهواء الطلق في منتصف النهار، وكم كانت ممتعة ومفيدة سواء المحاضرات أو المسرحيات، ولكن التحول بدأ يأخذ مساره وصارت الأشياء بالتدرج تأخذ معناها الرأسمالي، وصار كل شيء بثمن، ولقد شهدت لحظات ميلاد بعض هذه المظاهر حيث صرت أرى إعلانات في جامعة إكسستر عن محاضرات مكثفة تجرى يوم السبت عن

مواضيع محددة، وللاستماع إليها ثمن محدد كان حينها في حدود عشرة جنيهات عن مدة خمس ساعات عن موضوع معين، ولقد استفدت من بعضها ودفعت المبالغ المطلوبة لحضور جلسات عن شكسبير، وعن أفلاطون وعن المسرح الحديث وعن الفلسفة والنشرة بولجيا، وكانت مفيدة فعلاً وتستأهل المبلغ والوقت، ولكن الطريف هو الجندي الذي دفعته لحضور أمسية شعرية للشاعر الإنجليزي تيد هيوز، وذلك في منتصف عام 1979، وكتبت حينها مقالة بعنوان: للشعر مكان في القرن العشرين، وأتبعتها بعنوان جانبي هو: ليس رداً على غازي القصبي، وكان الدكتور غازي قد تساءل حينها عما إذا كان للشعر موقع في ذلك القرن، وقد رأيت حينها أن كثرة الحضور لأمسية هيوز مع أنها مدفوعة الثمن يمثل دليلاً على جماهيرية الشعر، ولكن الزمن من ليؤكد صحة رأي القصبي، وبريطانيا التي كانت تدفع للشاعر مالاً كي يلقي شعره هي نفسها التي دفعت بجامعة أكسفورد إلى نقض عقودها مع الشعراء ودفع غرامات مالية مقابل إلغاء العقود، مبررة ذلك بأنها لا تريد أن تظل تنشر مادة غير مطلوبة من السوق ولم تعد تستجيب لمتغيرات الزمن.

يأخذ المعنى الرأسمالي بعده بخطى سريعة ظهرت معها جائزة البوكر في بريطانيا، وهي جائزة سباق نحو رفوف المبيعات، وتقوم على مسابقة أبطالها الناشرون والمؤلفون الذين يتسابقون لنشر الروايات التي يعتقدون أنها ستكتب السوق ويقومون بترشيحها، وبما أن فوز واحدة منها لا يشبع رغبات التسويق ابتكروا نظام القائمة

الطويلة والقائمة القصيرة وتركوا زمناً يمر فيما بين مراحل الإعلان عن القائمتين ثم زمناً قبل إعلان الفائز النهائي، وهذا أدعى للتسويق وإطالة أمد الحديث عن الروايات والكتاب، وفي ذلك إشاعة للموضوع تساعد على تحفيز المبيعات ويمر على هذا عدد من الأشهر تبرز فيه الروايات على الرفوف ويكثر القول حولها في كافة وسائل الإعلام، ولذا يبذل الناشرون جهوداً مضاعفة في الدفع بمنتجاتهم نحو هذه الحفلة الجماهيرية، وهي حفلة في التسويق والدعاية، يسوق الناشر فيها نفسه مثلاً يكسب منها مالاً، ومثله المؤلف طبعاً، وهكذا تتنشأ ثقافة تسويق الكتاب وتسلیعه، وهي حفلة تتكرر سنوياً، ومن أجلها جرى تقييد النشر بسنة واحدة، وذلك من أجل تكثيف الحس الاحتفالي والاستعداد للمناسبة القادمة من بعد انتهاء عرس الموسم وحصاد القيمة. ولابد لذلك من توظيف شرط الذاكرة القصيرة حيث يجري نسيان الفائز سريعاً من أجل تأهيل الموعد التالي في العام اللاحق لكي تأتي قوائم أخرى تحل محل القوائم السالفة وتأخذ دورها في الإشهار والتسلیع، وهكذا دواليك في لعبة التكثيف الإعلامي ولعبة المسح والنسيان وإحلال أسماء محل أسماء وعنوانين محل عنوانين، وهذه تنسخ تلك كشرط لحلولها محلها، مثلاً يحدث في الموضات وحلول موضة محل أخرى في دوامة متصلة من الإلغاء من جهة والإشهار من جهة أخرى.

تلك ثقافة مضادة للمعنى الاشتراكي الاجتماعي الذي كان سائداً بين الشباب البريطاني - والأوروبي بعامة -، ومثلاً غزت الرأسمالية

المطلقة بريطانيا وحولت حزب العمال من حزب اشتراكي إلى واحد من أحزاب الوسط، وجرى إلغاء مبدأ التأمين رسميًا من ميثاق الحزب؛ فان الرياح هبت علينا في العالم العربي، وجاءت فكرة البوكر التنافسية بقوائمها التسويقية، وجاءت فكرة توقيع الكتب في المعارض وجاءت فكرة اشتراط مبالغ لإلقاء المحاضرات، أي فكرة تسليع العقل والخيال وطرحهما للسوق كبضاعة ومادة للبيع والثمين.

ومن أطرف المظاهر عندها هو ما سنته إحدى دور النشر العربية حيث لاحظت أن الدين العام في طباعة ثلاثة آلاف نسخة من الكتاب غير نافع تسويقياً، لأن انتظار حظوظها مع التسويق مؤملة للوصول إلى نفاد الطبعة الأولى سوف يطول، ولذا صارت تطبع خمسمئة نسخة فقط على أساس أن نفادها لن يطول كثيراً، وهذا سيعطيها مجالاً لإعلان نفاد الطبعة الأولى (من دون ذكر الأرقام) والتبرير بالطبعة الثانية، وهكذا حتى تصنع من الثلاثة آلاف نسخة المعتادة ست طبعات مدعاه، ولقد وجدت الدار أن هذا يعين على الإيهام بأن الكتاب مطلوب وإذا رأى الزبون أن هذا الكتاب قد صدر منه طبعتان في شهور تولد عنده الظن بأهمية الكتاب، وهي لعبة تسويقية حرصت هذه الدار على كتابة رقم الطبعة في الركن الأيسر من أعلى الغلاف وبشكل بارز بما إنه إعلان تسويقي، ولقد بدأت هذه الظاهرة تشيع مع دور نشر عربية عرف عنها الوقار والجدية، ولكنها اكتشفت أن وقارها وجديتها أضعفت سوقها وصرفت عنها الزبائن، وهنا وجدت نفسها

مضطربة إلى مجازاة السوق، وما سنته قوانين البيع والتنافس. لقد أخذت القيم الرأسمالية مأخذها حتى بلغت صيغ الوجه والأشكال وجاءت فنون الترويج للشخصيات عبر نظريات تحسين الصورة وتجميل الوجه وتسويق الأسماء والمصيغ التعبيرية، وتأسس لذلك وكالات مثلما تأسس له نظريات وتخصص له باحثون ومعاهد تدريب.

وهو كله ضرب من ضروب السباق إلى الرفوف الأمامية للمكتبات والرفوف الأمامية للذاكرة، ويترافق قانون الوقار لمصلحة قانون الإثارة، وهي لغة مرحلتنا الحالية، ولم تُـ فكرة الأكثر مبيعاً في ثقافة النشر إلا إحدى مظاهر هذه النظرية الرأسمالية والسوق الحرة والتنافسية الثقافية.

لقد كانت الرأسمالية نظرية اقتصادية من إنتاج الثقافة ومن بنات أفكار الكتب، على أنها نظرية للتجارة والصناعة وما يتبعهما من سياسة مساندة، ولم تكن نظرية في الثقافة، ولكن الصنم يرتد على صانعه ليهيمن عليه ولذا انتهى المطاف بأن خضعت الثقافة للشرط الرأسمالي وترسملت حتى صارت من المسلمات الكلية التي لم تعد موضع تساؤل ولا موضع تحرج، وزالت الطهورية الأولى التي كانت تنصب الكلمة بالتزاهة والتسامي وتباعد بينها وبين المال حتى صارت الفتاوي الدينية محددة الأسعار بناء على استثمار الوقت والفك، بوصفهما بضاعة ومادة تجارية.

الفصل الثالث

الأمية: سؤال آخر

الأمية

يأتي مصطلح الأمية ليكون من أشد المصطلحات من حيث سوء الاستخدام، ويجري ربطه مباشرة بالجهل وتنسب إليه أسباب التخلف، ويجري دوماً الظن (التوهم...؟) بأن السبيل إلى التقدم هو في محاربة الأمية. وكم ننعي على أنفسنا في أرقام ونسب نتداولها حول نسبة الأمية العربية، ونظل نلوك الكلام موهمنين أنفسنا أن هذا هو سبب تخلف العرب، وأننا لن نتقدم مادامت الأمية فيينا بهذه النسبة أو تلك.

هذا كلام أول ما نقول عنه هو أنه كلام غير صحيح، ثم إنه كلام لا يقرأ الواقع ولم يقرأ التاريخ، وأول صور الواقع هي الهند، ويكتفي أن نتذكر الطبقية الاجتماعية والجهل والمرض وكثرة المشاكل حتى ليبلغ الأمر أن يفرز المجتمع طبقة من الناس لا يجوز مسها تعاليًّا عليها، وتبلغ نسبة الأمية درجات عالية حتى لتشمل مناطق كاملة بمجملها، وسنمضي بعيداً في القول عن هذه الأوضاع، ولكننا سنقول أيضاً إن الهند بلد متقدم علمياً واقتصادياً وديمقراطياً، مع وجود كل تلك العيوب، وهي عيوب تفوق ما عندنا بأضعاف مضاعفة.

ثم نأتي لنقرأ شيئاً عن الأمم السالفة، وهي كلها أمم تطفى عليها الأمية، والفتنة القارئة تاريخياً هي فتنة قليلة جداً، وهذا حكم يشمل الأمم كلها، ونحن في زمننا الذهبي في العصر العباسي، كنا أمة من الأميين من الأندلس حتى الصين والقراء منا كانوا في مراكز محدودة،

وبأرقام محدودة. ومع ذلك كانت الحضارة والترجمة ولنا دولة عظمى
تغطي المعمورة في حينها.

لقد انشغلت في فترة مضت بسؤال حول أرقام المخطوطات المتبقية
في مكتبات العرب والعالم عن تراثنا العربي، وهالني أن الأرقام صغيرة
فعلاً، وأنت لا تجد مخطوطة ما سوى بضع نسخ هنا أو هناك، قد
تصل للعشرات كأقصى حد، ولا تصل للمئات بأي حال، وحينما أقلقني
هذا الرقم وصرت معه ازداد قناعة بأن أمتنا ظلت أمة أمية حتى في
أزهى عقودها، وتبعاً لذلك تقوى عندي الرأي في أن الأمية ليست معياراً
يصح القياس عليه للحكم على التقدم، ومن باب التأكيد من سلامه
إحصاءاتي حول المخطوطات وأعدادها الصغيرة، فإبني تشاورت مع
الصديق الدكتور عبد العزيز المانع، الذي أكد لي صحة معلوماتي، وذكر
في أرقاماً لا تختلف عما وصلت إليه من أرقام، وهي كلها نسخ قليلة
ومحدودة (وسأتوسع في هذه المسألة في مقالة تلحق - إن شاء الله -).
ولو فرضنا أن سائلاً طرح فكرة الضياع والتلف والحرق، وتمثل
لنا بحادثة سقوط بغداد على يد التتار؛ فإن الأمر سيظل على حاله،
لأننا ما زلنا نتكلم عن نسخ محدودة حتى في دمشق والقاهرة وببلاد
الحرمين والأندلس، ومهما ضاع شيء من المخطوطات فإن المتبقى
علامة على الضياع، والنسبة بين ثلاثة نسخ من مخطوط ما في مقابل
ما يمكن أن يكون قد ضاع منه ستظل في حدود ضيقية، ولن نطرح
ملايين النسخ مقابل ثلاثة نسخ، ونقول إن الملايين ضاعت والثلاث

بقيت، ولكننا سنقول عن رقم يتقارب في تناصبه مع العدد ثلاثة أو عشرة. ثم إن الشواهد التاريخية تشير إلى حدود الواقعة الثقافية، فكل ما نعرفه عن ثقافتنا القديمة هو في بعض المراكز العلمية وبعض دور العلم وبعض المكتبات، وهي كلها تأتي في أرقام محدودة جداً، خمس مدن وسبعة مراكز وبضع مكتبات، وكل ذلك في بحر لجي من البشر المنسين في كافة أصقاع مملكة العرب، ولأي واحد منا أن يسأل نفسه عن الجزيرة العربية والأناضول الأولى وشمال أفريقيا وسائر بلدان الأندلس، ولن يجد حينئذ ذكرأ لأي منها لا في مساجد كبرى ولا مدارس ولا رجال علم ولا غير ذلك.

إذن.. فنحن إذا تكلمنا عن مجدنا التليد فإننا نتكلم عن فئة نخبوية قادت الفكر والمعرفة وصنعت الثقافة وسط بحر مائج من الأممية، ولم يضرها ذلك، وما كانت الأممية سبباً للخلاف ولا سبباً لضعف حضارى أو علمي، بل إن الأميين هم من فتح المعمرة، وما زال ذلك قائماً، وكل جيش في العالم يتكون من نسبة عظمى من العاديين ويقودهم رجل أو فئة غير عادية وينتهي الأمر. هذا في الحديث مثلما هو في القديم، حتى لقد نشرت الصحف الأمريكية تقارير عن جنودهم وجاءت الإجابات مذهلة في جهل الجنود لهمتهم وجهلهم بالبلدان التي يقاتلون فيها، وهذه حالة الجموع دوماً.

ثم نأتي إلى ما هو أخطر من ذلك وهو أن الأممية ليست رديف الجهالة، كما أن القراءة والكتابة ليست رديفاً للعلم، ولكي أوضح ذلك سأطرح

ثلاث جمل كاشفة هي:

1 - امرؤ القيس أمي لا يقرأ ولا يكتب.

2 - طه حسين أمي لا يقرأ ولا يكتب.

3 - محمود درويش أمي لا يقرأ ولا يكتب.

لو قلنا هذه الجمل بهذا التتابع، سنرى أننا نقبل بالأولى دون أن يتربّع عليها تقليل من شأن امرئ القيس، وسنقول إنه أمي وهو لا يقرأ ولا يكتب من دون وجّل، أما مع طه حسين فسنقول إنه لا يقرأ ولا يكتب، ولكننا لن نرضى بوصفه بالأمي، أما محمود درويش فإننا سنرفض الفكرتين معاً، ولو صحت إحداهما عنه فهذا سيقلل من شأنه، بينما لن يقل شأن امرئ القيس في الصفتين معاً.

من هذه اللعبة الثقافية سنرى أن الأمية لم تكن شرطاً للثقافة عند امرئ القيس لأن عصره كان عصراً أمياً، ولكنه كان عصراً ثقافياً حتى لنجعله نحن المتعلمين نموذجاً يحتذى، وكنا نرى أن من يحفظ شعره ويعرف سيرته هو المثقف النموذجي.

وإذا جئنا لطه حسين فإننا سنسلم حتماً أن القراءة والكتابة ليست شرطاً للتعلم وهذا الذي لا يقرأ ولا يكتب هو عميد الأدب العربي في عصر يسمى بعصر النهضة والتحديث، ولكن هذا لم يمنع الأذن أن تكون مادة للتعلم، وفي حالته كان السمع هو المصدر للمعرفة، وإذا قلنا هذا فإننا سنقول حتماً إن كل سمع هو تعلم، وسيكون الأميون في كل مكان مؤهلين للتعلم والتحضر عبر السمع.

وإذا عدنا لمحمود درويش فإننا حتماً سنحتقره لو ثبت عندنا أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك لغلبة الظن الواهم عندنا بأن التعلم والشهادات هي العلامة على الثقافة ولا سبيل سواها، وهذا وهم معرفي وربما أقول إنه تجاري جرى تسويقه من أرباب المدارس وأرباب الكتاب من ناشرين ومؤلفين، وهم من يروج لفكرة التعليم والتعلم وحصره بشرط القراءة والكتابة ومن ثم الكتاب ومبيعات الكتب وانتشار عادة القراءة، ونمسي في ذلك من غير تمعن ولا رؤية، ولم نسأل أنفسنا قط ماذا لو تحول الشعب العربي كله إلى قراء وكتبة... هل سنغزو المريخ بهؤلاء الكتبة...؟ والأصح أن أقول: أنصاف الكتبة...؟!!!.

في كل التواريix من يصنع الحضارات هم أفراد قليلون ويتبعهم جموع لا تحصى، والذي يغير هي الأفكار والرؤى الكبرى، وهي التي تحول البشر من الخمول إلى الفتوحات، ومثال أمتنا الأممية واضح للعيان، حيث تحول خمولها التاريخي إلى افتتاح عالمي ابتعال الجغرافيا والحضارات في بضع سنوات.

إن كل حالة تدقيق في المصطلحات والمقولات تكشف لنا كم نحن خاضعون لما نخترعه من معان، وكم تتحكم المعاني فيما حتى لنقع في الأوهام ونحن نظن أننا نتحرر منها، لم تكن الأممية قط علامة على الجهل ولم تكن قط عائتاً حضارياً، وربما أجازف أكثر وأقول كم جنى العلم علينا من جنایات فأنتج الجهل والأمراض والحروب، وعلى المستوى الإنساني سلاحظ حتماً أن الأمي طيب وبسيط وروحاني،

بينما العالم يميل للتأديج والعنجهية والتذهب، وأخطر منه نصف العالم ونصف الطبيب ونصف الفقيه، كما هو القول المأثور عنمن يقتل الناس ويلقي بهم في الجحيم.

وسيكون في عودة لمزيد من القول في الأمر وفي المخطوطات أفضل القول فيما إن شاء الله. وإلى حينها فإني أطلب من الأعزه القراء والقارئات التأمل معى بهذا السؤال: هل لو تعلم العرب -كل العرب- القراءة والكتابة وخلصوا من الأممية تماماً.. هل سنغزو المريخ من الغد...؟!!!.

الأستاذ

منذ أن وصلت الثقافة البشرية إلى مرحلة امتهان الكتابة كأداة معرفية في التأليف والتواصل وهي تميل شيئاً فشيئاً إلى تمييز الكتبة بوصفهم طبقة علمية ومعرفية تتفوق عقلياً وطبقياً على غيرهم، والرجل الوضيع المهمش يصبح مكيناً وعلى منزلة رفيعة إذا ما اتخذ الكتابة والتأليف له حرفه ومجالاً تداولياً كشأن الجاحظ الذي جاء من قاع المجتمع ومن هامشه الملغى ليصبح على شأن كبير بما إنه مؤلف تطرق أبوابه رموز زمانه ليؤلف لهم مؤلفاً يقتربونه أو يهديه لهم -كما تكشف مقدمات كتابه-.

والمسألة ابتدأت منذ زمن أفلاطون الذي لم يكن من بيوت الحكم

والمال، ولكنه فيلسوف اعتمد الكتابة أداة ومعنى، ومع اعتماده الكتابة لتوصيل الأفكار تميز عن أستاذه سقراط الذي كان شفاهياً يعتمد على المحادثة والمحاورة، وهذا ما جعل سقراط شعبياً مثله مثل تلاميذه بينما جاء أفلاطون حاملاً ومؤسسًا لنوع خاص من الطبقية الفكرية، حيث ارتبط خطابه الفلسفي بالتعالي والعنجهية بما إنه يقوم على احتقار البسطاء مع فرز قطعي يبعد النساء والعبد والصبيان والأجانب ويقلل من قيمتهم الإنسانية والمعاشية والعقلية. ولا شك أن هذا الترابط الطبقي بين الفلسفة في نشأتها التأسيسية وبين الكتابة ثم بينهما والطبقية المتعالية هو أمر تشهد عليه الواقع وتبين مقدار كل ما هو كتابي على ما هو شفاهي، ومع الزمن جرى فرز المصطلحات فيما بين المتعلم والأمي، حيث ينسب العلم والتعلم لشرط إجادة القراءة والكتابة ومن لا يملكتهما فهو أمي، وكلمة أمي ستكتسب مع الزمن معنى الجهل والتخلف، وكل محاولة لدرء الجهل والتخلف سوف تفترض أنها لن تتم إلا عبر تعليم الناس القراءة والكتابة، وسيجري تعزيز هذا الافتراض حتى ليصبح قاعدة كونية، وتقوم عليه خطط وسياسات ونظريات تربوية واجتماعية مبنية على هذا الأساس النظري الذي سيكون سلوكاً بشرياً يومياً حيث سيجذب الناس إلى تحقيр أي أمي يدعوى أن الأمية جهالة، وكما أشرنا في المقالة السابقة، فإن الأمية هي مسألة محصورة حصرًا قاطعاً بعدم القراءة والكتابة، ومن قرأ وكتب لا يسمى أمياً، وهنا يتكشف الخلل التعريفى،

لأننا حتماً سنقول عن امرئ القيس وعن طه حسين إنهم لا يقرآن ولا يكتبان ولذا هما أميان، ولكننا لن نقول إنهم جاهلان.

ولكن، ومع مثال هذين المثالين أمامنا سيظل الناس يقولون إن الأمية هي الجهة وسيقال إن هذا هو سبب أو علامة تأخر الأمة العربية مثلاً، وسنظل نتوه عننا لو علمتنا العرب القراءة والكتابة فإننا سنحل مشكلة التخلف. وهذا تصور لا شك في خطئه ولا شك في مجافاته لتحليل المشكل أو تصوره.

وأسأسوق مثلاً واقعياً صار لأخي صالح حيث كان مسؤولاً عن مصلحة المياه في منطقة البدائع في القصيم وكان ينوي رفع الطاقة المائية هناك فاتجه مع المهندسين والفنين يمسحون السفوح والأودية لرصد مواقع لحفر بئرين للماء، وظل الفريق يعمل ويتحرك لساعات، وكان أخي يلحظ أن رجلاً مسنًا يتبعهم متفرجاً عليهم ومستطلاً على أمرهم ولم يكن يتكلم أو يعلق، واكتفى بالمشاهدة واللحاظة، وحينما قرر فريق العمل موقعين للحفر فيهما تحرك الشيخ باتجاه أخي متوسماً فيه أنه رئيس القوم للاحظته أن الحديث يبدأ منه وينتهي إليه، وتغفوه الشيخ بعد صمت طويل وقال: يا استاد (بالدال المهملة كما هو النطق الشعبي) هل أنت رئيس القوم... وهل لي أن أسألك عن اختياركم لهذين البئرين وهل هو عن علم جديد لكم....؟!! يقول أخي إنه حينما سمع كلام الرجل الأمي بدا له أن في الأمر خبراً مغرياً، ولذا بادره بالرد قائلاً له: تفضل يا عم.. قل ما تريد قوله...

وحينها قال الشيخ إننا يا ولدي في زمننا الأول لا نحفر بئرين متتابعين شمالاً وجنوباً، ولكننا نجعلهما متجاورين عن شرق وغرب، لأن الماء يجري من الشمال إلى الجنوب وإذا اشتغل البئر الشمالي منع تدفق الماء عن الجنوبي، أما إن كان شرقاً عنه أو غرباً فإنهما يتذفكان معاً دون تأثر.

ابتسم أخي في وجه الرجل وشكره ثم أمر الفريق بتعديل موقع الآبار وتصحيح ترتيبها من شمال وجنوب إلى تجاور شرقي غربي، وقال لنجرب هذا الحل ولنأخذه بالاعتبار في كل مشاريعنا القادمة، ولقد صح عنده بالتجربة أن قول الرجل الأمي كان أدق وأصدق من تصورات المهندسين والفنين وألاتهم الفاحصة بكل ما فيها من دقة مادية أو نظريات متواترة.

لقد كان كلام الشيخ الفلاح مبنياً على تجربة توالت وتعلم هو وجيهه منها، ومع أنه أمي ومتواضع وقد يصف نفسه بالجاهل - كما هي عادة هؤلاء البشر، حسب ما فرضته عليهم ثقافة المتعلمين من ترسيمهم تحت هذا المصطلح الظالم فعلاً، ولسوف نجد أن التجربة هذه توحى بتصور مهم إستراتيجياً وهو أن المياه تتدفق من الشمال، ربما من جبال الأنضول أو ما وراءها، ومثلاً هناك أنهار على وجه الأرض فهناك أنهار في جوفها تمر من الشمال إلى الجنوب، في كل أرجاء جزيرة العرب، وهذا ما هو ملموس في القصيم، وقد يعني هذا أن مياهنا ليست (كلها) مخزوناً أرضياً قديماً قابلاً للنفاد كما هو المتصور العام،

ولكن هناك مياهًا جوفية مخترنة من القدم وبإذائها مياه جارية
كأنهار دائمة التدفق، والتجربة الفلاحية تقول ذلك وتوكده، وتجربة
أخي صالح وفريق العمل معه تتجه لقبول هذا الاستنتاج ولقد نجحت
تجربتهم العملية تلك وهناك مؤشرات لديهم تقول إن الماء من هذا
النوع من الآبار السطحية ذات العمق الذي لا يزيد عن مئة وخمسين
متراً أو في حدودها؛ لا يتناقض مع الاستخدام.

هذه قصة واقعية لرجل أمي صار أكثر حكمة وأكثر دقة من
المتعلمين، ولن ننسى الجانب التربوي هنا أيضاً، وهي أن الأمية
مصحوبة بدرجة عالية من التواضع وكل أمي أو أمية يتسم سلوكهم
بالإنسانية من حيث تقديم أنفسهم وملحوظاتهم وأسئلتهم تحت
غطاء البساطة والاحتمالية والاستفسار التلقائي، بينما يرتبط التعلم
بالادعاء والفوقيـة والقطـعـية، وهذا فارق نلمسـه بين فلسفة سocrates
وفلسفة أـفـلاـطـونـ حيث كان سocrates حوارياً وتفاعلـياً وـتـوصـيلـياً بشـكـلـ
إنسـانـيـ وهذا ما نقلـهـ تلامـذـتهـ عنـ سـلـوكـهـ معـهـمـ حتىـ لـقـبـلـ حـكـمـ
الـجـمـاعـةـ عـلـيـهـ وـرـضـيـ بـأـنـ يـقـتـلـ بـمـاـ إـنـ هـذـاـ هـوـ رـأـيـ الـجـمـعـعـ وـقـرـارـهـ،
وـكـمـ هوـ فـرـقـ جـذـريـ عنـ طـبـقـيـةـ أـفـلاـطـونـ وـتـعـالـيـهـ العـنـصـرـيـ وـالـعـقـلـيـ.
فيـ كـلـ مـرـةـ يـعـودـ المـرـءـ فـيـهـ إـلـىـ زـمـنـ الـأـمـيـةـ -ـ وـلـكـلـ وـاحـدـ مـنـ مـرـحـلـةـ
مـعـهـاـ وـلـوـ قـصـيـةـ -ـ فـإـنـهـ يـعـودـ إـلـىـ شـيءـ مـنـ التـواـزـنـ مـعـ نـفـسـهـ وـمـعـ
عـالـمـ، وـهـنـاكـ شـوـاهـدـ كـثـيرـةـ تـشـيرـ أـنـ الـعـلـمـاءـ الـكـبـارـ كـلـمـاـ كـبـرـتـ بـهـمـ
الـسـنـ وـصـارـواـ شـفـاهـيـنـ وـحـكـاـوتـيـنـ صـارـواـ أـكـثـرـ حـكـمـةـ وـوـاقـعـيـةـ،

حتى كبار الساسة والقادة والمفكرين السياسيين والاقتصاديين إذا ما خلوا لأنفسهم وتخففوا من سلطوية التخصص عليهم فإنهم يبدون في حال تأملية تصفي أفكارهم في مصفاة التأمل الاستطرادي والتبصر بما مر وما كان وما خبروه فتأتي لهم روح نقدية ذاتية وروح في التبصر والتروي لم تكن لهم وقت حماسهم ووقت اندماجهم العضوي مع نظرياتهم، وهذه أمور ثبّتهاحوارات التلفزيونية مع أهل الخبرة والتاريخ حيث تراهم على كرسي التلفاز وكأنهم غير ما رأيت في بطون الكتب ولا على مقاعد التحكم، وتراهم إنسانين بدرجة تذهل من يشاهدهم يتحدثون ويستخدمون الوسائل المباشرة في التعبير عن حركات الوجه واليدين. وكم ظهر أناس من علية الطبقات ومن أشداء التاريخ ومع ذلك تتدفق دموعهم وتتضطرب حركاتهم ويظهرون أطفالاً من بعد عمر من الجبروت. وهذا مظهر من مظاهر زمن الأممية والفتريّة تقمّعه سلطة الكتابة وادعاءاتها ولكن يحتال نفسه بالعودة مهما قمناه تحت دعوى البدائية والتخلّف، وما هو كذلك.

إن أشد قيم التخلّف ليس الأممية ولكنه التعليم الادعائي بأنصاف المتعلمين كما قال المثل (ما قتل الناس سوى ثلاثة: نصف طبيب ونصف فقيه ونصف عالم).

إن التعليم الخداع هو التعليم القاتل وهو شبه التعليم وشبه التقدم، وكم ذا نجد أن التعليم هو تجهيل والأمية أفضل منه لأن الأممية تواضع

وتسليم بعدم المعرفة، ونصف العلم أن تقول لا أعلم، أما العلمية الواهمة فهي ادعاء وعنجهية ومن ثم هي خطر داهم ومتصل. ولقد قال لويس باستور كلمته الشهيرة: إن قليلاً من العلم يبعدنا عن الله وإن كثيراً منه يقربنا إليه.

في كل مرة يتقوى العلم ويشتت يأخذ بإنسانية الإنسان وبشرطه الوجودي الأهم، وفي كل مرة يكون التعلم شبهه تعلم فهو الكارثة، وهو التخلف، وما كانت الأمية هي سبب التخلف كما لن تكون قراءة الأبجديات وضرب لوجة الحاسوب هي الوعد التقديمي.

المخطوطات أو علامات التقدم والتأخر

تأتي المخطوطات لتكون هي العلامة الثقافية الخالدة في تراثنا، ومنها نشأت مؤسسات ثقافية مهمة، أولها دور الكتب التي تحتوي هذه المخطوطات في بلادنا وفي أوروبا حيث ترحلت أعداد منها إلى مكتبات الاستشراق واستقرت هناك ومنها نشأ علم تحقيق المخطوطات، وهو علم تولاه المستشرقون وتفننوا فيه ونشروا عبره كنوزاً من التراث العربي، وما زالت بعض النسخ المطبوعة في أوروبا تتواتر بين أيدينا عبر تصويرها في نسخ يتغير لون الغلاف ولكن يبقى الداخل كما هو حسب طباعته قبل عقود من السنوات، وكم أجد الأمر ممتعاً حيث أحافظ بنسخ من هذا النوع مما هو مطبوع في هولندا أو ألمانيا قبل عشرات السنين في مطالع القرن الماضي، وتولت بعض دور النشر العربية إعادة

نشره (أو سرقة نشره) وظلت الورقات تشهد على مصدر الطبعة وأساسها وأساس تحقيقها، ومنها كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وهما كتابان حققا ونشرا في أوروبا قبل أكثر من قرن من الزمان، وهذا ما تكشفه الورقات كلها ولكن الغلاف المجلد يحمل اسم وشعار دور نشر عربية وضعت اسمها على جهد غيرها.

أخذ العرب المحدثون مهنة التحقيق عن المستشرقين، وجاء جيل من المحققين العرب وحملوا على عاتقهم تحقيق التراث، وصار هذا فناً وعلمًا له رجاله ولله تاريخه العريض، وفي مع التحقيق قصص أولها أنني كنت على مشارف هذا التخصص وأوشكت أن أكون محققاً فعلاً، وذلك أنني بعد عودتي من البعثة عام 1978 كانت جامعة الملك عبدالعزيز تضم شطرين أحدهما مكة والآخر جدة، وكانت جدة هي الأحدث بينما كانت العراقة والثقل في مكة، خاصة في علوم الشريعة واللغة العربية، وكانت ميالاً لجدة وذلك تطلعًا لفرص العمل الريادي لحدثة كل شيء فيها بينما الأمور في مكة قد استقرت منذ عقود، ولا مجال لأنستاذ جديد أن يشق طريقاً خاصاً لأفكاره وسط ذلك الجمع المتخصص والمتمكن من الموقع وهم أصحاب الرأي والقرار، ولذا كنت أوثر الموقع الجديد لما يمكن أن تتوفر فيه من فرص الابتكار في المنهج وفي الوسائل معاً، ولكنني وبعد أن مررت أوراقي على مجلس الجامعة، وكان الأمر يحتاج إلى عمل مكثف لأن أصحاب تخصص اللغة العربية

عادة يتم توجيههم إلى مكة مباشرة، وتلك كانت عقبة تهدد رغبتي في جدة ولقد علمت لاحقاً أن ممثلي شطر مكة حاولوا الاعتراض على أمر تعيني في جدة وهم بعضهم بالطالبية بإحالتي إلى مكة ولكنهم تراجعوا عن الفكرة تحسباً لعدم رغبتي، ولذا من تعيني بجدة بسلام، ولكن المشكلة نشأت حينما تبين أن ملفي وكل سجلاتي محفوظة في مكة، وهنا احتجت إلى رحلة إلى مكة مصحوباً بخطاب رسمي يطلب تحويل ملفي إلى جدة تمهيداً لإصدار قرار تعيني، وفي مكة حرصت على أخذ ملفي قبل مقابلة الأصدقاء هناك، وما أن استلمت الملف حتى رأيت الدكتور عبدالله الجريبي الذي خطف الملف من بين يدي مزمعاً التحفظ على وعلى ملفي لكي يقنعني بالبقاء في مكة، واستعان علي بالصديق عبدالرحمن السليمان العثيمين، ووجدت نفسي بين الجريبي والعثيمين حيث قاداني إلى مركز المخطوطات، وببدأ العثيمين يفتح الأدراج ويعرض المخطوطات مع شرح وافي لكل ما في المركز من كنوز تراثية، وكأنما كان يعرض ماء زلالاً على رجل يلوك لسانه من العطش، لقد كان منظر المخطوطات مغرياً وفاتناً فعلاً، وأوشكت أن ألين لحظتها، وأنقبل التعين في مكة وذلك من شدة تشويقي وتعطشني لهذه الكنوز ورأيت نفسي محققاً متخصصاً بين هذه الأوراق المفرودة أمامي، ولكنني راجعت نفسي وأخذت عزة العناد والتشبث بال موقف وشددت على أحاسيسني وتحايلت على مضيفي بقولي إبني سأدرس الأمر، وأخذت ملفي من يد الجريبي وذهبت إلى موقف السيارات

حيث ركبت مع أول سيارة أجرة عائداً إلى جدة مع ملفي حيث صدر قرار تعييني هناك، وانتهى أمري مع المخطوطات. ولا بد أن أقول إن عبدالرحمن بن سليمان العثيمين كان وقتها عام 1978 يظهروعياً مذهلاً بالمخطوطات وكان وعيه ذاك يشعرك أنه سيصبح عالماً متفرداً في التحقيق ومرجعاً يشار إليه ويعتمد عليه، وقد صار فعلاً حيث أصبح مرجعاً علمياً عربياً وعالمياً في مجال تحقيق المخطوطات العربية، وكان المرحوم محمود شاكر يرشحه لهذا الدور ويصفه به وقد صار، ونعم العالم المحقق هو.

أما فيما يتعلق بي فقد انتهى أمري مع المخطوطات والتحقيق كمهنة ولكن حبي للنص المخطوط لم ينقطع قط، وما زلت أجد متعة خاصة كلما رأيت مخطوطة، وكم يفتنني منظر الورق والببر وخطوط اليد وتنسيق الصفحات وما تحمله بعضها من ألوان وتعرجات، حتى لكانني أنظر إلى حديقة زهور غناء.

ذاك حب متصل للكتاب وللتراث، وهو ما حفظ في ذهني الأسئلة عن هذا التراث، وكان مما يشغل بالي هو عدد النسخ لأي مخطوطة، وكانت لألاحظ أن الأعداد دوماً قليلة ولا تجد من كتاب مخطوط سوى بضع نسخ متوزعة في أرجاء العالم من تركيا إلى أوروبا إلى مصر والمغرب والشام واليمن.

كان السؤال عندي ما الذي يجعل المخطوطات محدودة النسخ، مع أن ما يتواتر في قولنا هو عن مجد عريق في بغداد وغيرها وأن الكتب

كانت تعمـر عالـمنا الـقديـم، والـسـؤـال هـنـا هو: أـين هـاتـيك الـكتـب الـتي
نـتصـور أـنـها تـملـأ مـجـال المـعـمـورـة الـعـربـيـة وـالـإـسـلـامـيـة...؟!
كـنـت أحـمـل هـذـا السـؤـال وـتـصـورـي هو أـنـ الأـعـدـاد قـلـيلـة وـالـأـمـة لمـتـكـنـ
تـقـرـأ بـمـثـل ماـ نـوـهـمـ أـنـفـسـنـا عـنـهـا، وـظـلـلـتـ عـلـى هـذـا التـصـور سـنـيـنـا إـلـى أـنـ
قرـرـتـ أـنـ أـحـسـمـ الـأـمـرـ حـيـثـ صـرـتـ أـطـرـاحـ الـأـسـئـلـةـ بـصـدـقـ هـلـ القرـاءـةـ
وـالـكـتـابـةـ فـعـلـ عـمـومـيـ أـمـ أـنـهـاـ عـمـلـ نـخـبـيـ وـتـخـصـصـيـ ضـيقـ وـمـحـدـودـ،
وـالـدـلـلـيـ يـأـتـيـ مـنـ أـرـقـامـ الـمـخـطـوـطـاتـ الـتـيـ تـشـيرـ إـلـىـ أـعـدـادـ قـلـيلـةـ،ـ حـتـىـ
ولـوـ قـلـنـاـ بـالـضـيـاعـ وـالـتـلـاشـيـ وـمـاـ قـامـ بـهـ الـمـغـولـ منـ حـرـقـ وـتـمزـيقـ وـمـاـ
طـالـتـهـ يـدـ التـلـفـ وـالـزـمـنـ،ـ حـتـىـ لـوـ قـلـنـاـ بـهـذـاـ فـإـنـ السـؤـالـ يـظـلـ شـاهـرـاـ
وـجـهـ...ـ وـهـوـ أـنـ الـأـعـدـادـ الـتـيـ نـجـدـهـاـ آـنـ تـشـيرـ إـلـىـ ضـائـةـ فيـ الرـقـمـ،ـ مـاـ
يـؤـكـدـ أـمـيـةـ الـثـقـافـةـ وـمـحـدـودـيـةـ الـقـرـاءـ،ـ وـيـشـيرـ إـلـىـ أـنـ عـالـمـ الـكـتـابـ بـسـيـطـ
مـنـ حـيـثـ الـأـرـقـامـ.

وـهـنـاـ صـارـ لـيـ حـدـيـثـ مـعـ الصـدـيقـ الـدـكـتـورـ عـبـدـالـعـزـيزـ الـمـانـعـ عـرـضـتـ
عـلـيـهـ رـأـيـيـ هـذـاـ،ـ وـتـفـاجـأـتـ بـهـ يـؤـكـدـ ظـنـونـيـ بـسـرـعـةـ شـدـيدـةـ وـيـعـطـيـنـيـ
أـرـقـامـاـ عـزـزـتـ مـاـ ذـهـبـتـ إـلـيـهـ،ـ وـقـدـ قـدـمـ الـمـعـلـومـاتـ بـوـثـائقـ مـصـورـةـ،ـ وـأـثـبـتـ
لـيـ أـكـبـرـ رـقـمـ لـمـخـطـوـطـةـ هـوـ عـنـ مـخـطـوـطـةـ (ـشـرـحـ الـواـحـدـيـ لـدـيـوـانـ
الـمـتـنـبـيـ)ـ وـقـدـ بـلـغـتـ مـئـةـ نـسـخـةـ،ـ وـهـذـاـ هـوـ أـعـلـىـ رـقـمـ مـعـرـوفـ،ـ باـسـتـثـنـاءـ
كـتـابـ وـاحـدـ هـوـ فـيـ الـوـاقـعـ كـرـاسـ مـدـرـسيـ وـهـوـ كـتـابـ (ـدـلـائـلـ الـخـيـراتـ)
الـذـيـ وـجـدـ مـنـهـ خـمـسـمـائـةـ نـسـخـةـ،ـ وـلـكـنـهـ كـتـابـ مـعـدـ لـلـطـلـبـةـ وـيـتـداـولـهـ
الـدـارـسـونـ كـمـادـةـ مـقـرـرـةـ،ـ أـمـاـ مـاـ عـدـاـ ذـلـكـ فـهـوـ بـأـعـدـادـ قـلـيلـةـ بـعـضـهـاـ

نسخة واحدة فقط، وبعضها بضع نسخ ولم يصل للمائة سوى كتاب الواحدي ذاك.

هنا يتعزز القول إن فعل القراءة والثقافة كان فعلاً محصوراً ومحدوداً، والذي يقرر مصير التقدم في أمة من الأمم ليس هو وجود ملابسين البشر من يقرؤون ويكتبون، ولكنها فئة قليلة تجيد هذا الدور وتتمكن منه تمكناً إبداعياً وعلمياً وهي التي تقود الأمة للتقدم، وهذا ما تدل عليه وقائع التاريخ كلها فشكسبير كان واحداً بين الملابين، والعلماء اليوم من المخترين هم فئة محدودة، كما أن الأمية في الهند اليوم هي أكبر رقم في العالم، ولم يمنع هذا من أن تتقدم الهند وتتفوق، وهي لم تتفوق بملابين القراء ولكنها تفوقت بأعداد محددة من العلماء حصلوا على تأهيل علمي مع نوع من أخلاقيات العمل والمبادرة ولذا حققوا مرادهم.

كنت أريد أن أقول إن الأمية ليست جهلاً، هذا من جهة، وإنها ليست هي التي تعيق الأمة عن التقدم، ومؤشر المخطوطات العربية يؤكد أن أسلافنا وقد تقدموا وصرنا نفاخر بهم، إنما تقدموا بجهد أفراد صنعوا المعرفة بمبادرة وجهد مكثف صادق، وليس ببطوابير من الملابين، ولا شك أن الملابين ضرورية للمعارك الحربية، ولكنها ليست شرطاً للتقدم العلمي. والظن أن العرب متاخرون اليوم بسبب عموم الأمية يصبح وهماً وسذاجة في التحليل، والعلة ولا شك ليست من الأمية، والأمية لم تكن عائقاً في القديم ولا هي عائق في الحديث. ولكن العلة

هي في الضعف التخصصي وضعف أخلاقيات العمل وحواجز الإبداع. وعلى رأسها عندنا تأتي القوام التي تمارسها المؤسسة والمجتمع ضد التحفيز الذاتي مما يؤدي إلى تدجين الروح الإبداعية وترويضها حتى تصبح مثل سائر القطيع، وهذه سيرة ذاتية لكل واحد منا تقريراً وهي في الوقت ذاته سيرة اجتماعية عامة ومشهودة.

وأنا هنا أؤكد على معنى أساس وهو أن الأمية ليست رديف الجهل ولا هي نقىض الثقافة، ولكن البلوى هي فيما يسميه صديقنا الأستاذ إبراهيم البليهي بعلم الجهل وبنية التخلف، وهم عندي أنصاف المتعلمين الذين لا يتمتعون بطبيبة الأمية وتواضعها وفي الوقت ذاته لم يدركوا الوعي المعرفي وأخلاقيات الابتكار، ويزيدون الأمر ظلامية بألا يتركوا الأمر لأهله وهذا هو التكذس الحضاري القاتل فعلاً، مع ما يصاحبه من قمع متصل لكل فكر ابتكاري.

الشفاهية الإلكترونية

الإنسان كائن شفاهي بالضرورة وتلعب الشفاهية دوراً عاطفياً جوهرياً في حياة الإنسان، وما كانت الكتابة منذ اختراعها المبكر سوى فعل مصاحب تخصص في وظائف محددة وتقاد تكون مصطنعة، بينما ظل الدافع الحكائي (الشفاهي) هو أقوى النوازع البشرية في فعل الاتصال والتواصل.

ومن أبرز الفعاليات البشرية هي فعالية (الحش) وهي الوظيفة

اللغوية العجائبية التي صارت بمثابة الازمة الاجتماعية والثقافية، وبدا الإنسان وكأنما هو معتمد اعتماداً نفسياً وحياتياً على هذه الوظيفة، على الرغم من الموقف السلبي من هذه الوظيفة، وما من أحد على المستوى الشخصي أو على مستوى الوعي الأخلاقي والسلوكي إلا ويتكلم ضد خاصية الحش ويدمها ويزيد في ذمها، وهي شرعاً تسمى بالغيبة، ويجري التحذير منها والتشديد في ذلك، ولا يختلف اثنان على حرمتها وسوئها، وفي الوقت ذاته لا يجتمع اثنان إلا وأخذنا بتلابيب الحديث عن الآخرين الغائبين، ولعل المجتمع استعراض عن الكلمة الغيبة بكلمة (الخش) من باب المواربة وتجنب التحدى الصارخ لكلمة (الغيبة) وما تستحضره هذه الكلمة من نصوص شرعية وأخلاقية في التحذير منها، والناس لا يقولون عن أنفسهم إننا أمضينا ليلتنا نغتاب البشر، ولكنهم سيقولون إننا كنا نحش بالناس وبفلان وفلان، والمعنى واحد ولكن إحدى الكلمتين مشحونة بالتحذير والأخرى تبدو عليها دلالات العبثية والتزجية.

ومع مصطلح الغيبة يأتي مصطلح النميمة، والنميمة الكلمة مصاحبة لا تكتمل معاني الغيبة أو الحش إلا بها، وذلك أن النمام ينقل وقائع جلسات الغيبة ويوصلها إلى الضحايا، وهي فعاليات يشعر ممارسوها بلذة عجيبة في فعلها، وقد يصعب عليهم مقاومتها وكأنما هي وظيفة عضوية يتحرك بها اللسان ولا يرتاح صاحبها حتى يخرجها من سره، والوظيفتان معاً، الغيبة والنميمة، محترمان بشدة

ومذمومتان بتركيبز قوي، وفي الآن ذاته هما مرغوبتان وممارسستان، ولا يخلو منها مجلس أو لقاء بين أكثر من شخص، ولا تستغنى عنهما اللغة بوصفها قيمة تواصلية وتداوilyة، ولا المجتمع بوصفه منظومة علاقات وتعارف بين الفئات. وكل فرد اجتماعي هو في آن واحد مادة للحش وللنمية مثلاً هو صانع لهما حالاً بحال.

لم تزل الحال على هذا الشأن وهي حال ثقافية عريقة وشاملة، وحينما جاء الاختراع الحديث في الإنترت، وسهل أمر الدخول إليها والتحرك اللغوي والتواصلي عبرها تعززت وسائل وفرص الحش والنميمة، فالإنترنت حل محل النمام الشفاهي البسيط، وصارت هذه الأداة التكنولوجية ميداناً عريضاً للغيبة وللنمية وبأوسع صورهما الممكنة، وإذا عثر امرؤ على معلومة سرية وتحركت عنده رغبات الفضح والنم سرى بها بجرة أصبع على الشاشة البيضاء وتحركت معه كل روابط التواصل لتعيم هذا السر ووضعه في صيغة تداولية غير نهائية.

هنا نشأ النمام التكنولوجي الحديث، ومعه زادت فرص و مجالات الحش والغيبة، وتتسنى للمغتاب والنم أن يتستر وراء أقنعة كثيفة، أولها الاسم المستعار ومعها وسيلة التحرك غير المراقبة، مع توفر السلامة الاجتماعية والرسمية، على خلاف السابق في زمن الشفاهية البدائية حيث كان اكتشاف الفاعل ميسراً بسبب المباشرة والمحدودية الظرفية، مع ضيق مجال الدائرة التواصلية ومن ثم إمكانية حصرها،

ثم إن النمام في حال الشفاهية البدائية يباشر العمل بشخصه وبحضوره التام، أما مع الإنترت فإن الأقنعة من اليسر بحيث تشكل واقياً حصيناً يسهل العملية من جهة ويفتح آفاق الحركة من جهة ثانية حتى لتحرك الكلمات مثل حركة الرياح، تلك الحركة التي لا تدري كيف تأتي ولا إلى أي مدى ستذهب، وتصعب مهمة تتبعها حتى لتبدو بحكم الحركة التلقائية الذاتية التي لا يد لأحد عليها. هذا منشط جديد للشفاهية الحديثة أو الشفاهية التكنولوجية، وعبرها يمارس الإنسان أحب وظائفه اللغوية وأبرزها.

تدخل هذه الفعالية متصاعدة مع علاقة الإنسان مع الزمن، فالماء مع تعلقه بالحياة ورغبته الغالبة في أن يمتد به العمر إلا أنه وفي الوقت ذاته يشعر بطول الزمن ويعلن عن ذلك بتشكيه من الطفesh والملل، وهو يعالج هذا بالمجالسة والمحادثة، وهما معاً ظيفتان اجتماعيةان ونفسـيتان، ولا غنى للمرء عنهما، ولو حرم منهما فإنه يشعر بالعذاب، ولذا صار أشد أنواع التعذيب في السجون هو السجن الانفرادي حيث الحرمان التام من المجالسة والمحادثة، أي الحرمان من الاحتياجات النفسية والاجتماعية. وقد أدرك صناع الإنترت هذه الحاجة البشرية، فاستغلوها بأعلى درجات الاستغلال حيث فتحوا المجال لهذه الممارسة على أوسع باب، ولم يتردد البشر في انتهاز فرصة الولوج عبر هذه الأبواب المشرعة، فصار لهم الميدان والمتنفس لممارسة رغباتهم الفطرية والسرية والوجودانية، في حين وجد تجار الواقع

الإلكترونية باباً للكسب والإعلان والتسويق عبر هذا التدافع البشري الذي يكثر أعداد المترددين ويقوى فرص تواصلهم وحضورهم مما هو كسب في تحشيد الناس ومن ثم تسريب الإعلانات إليهم.

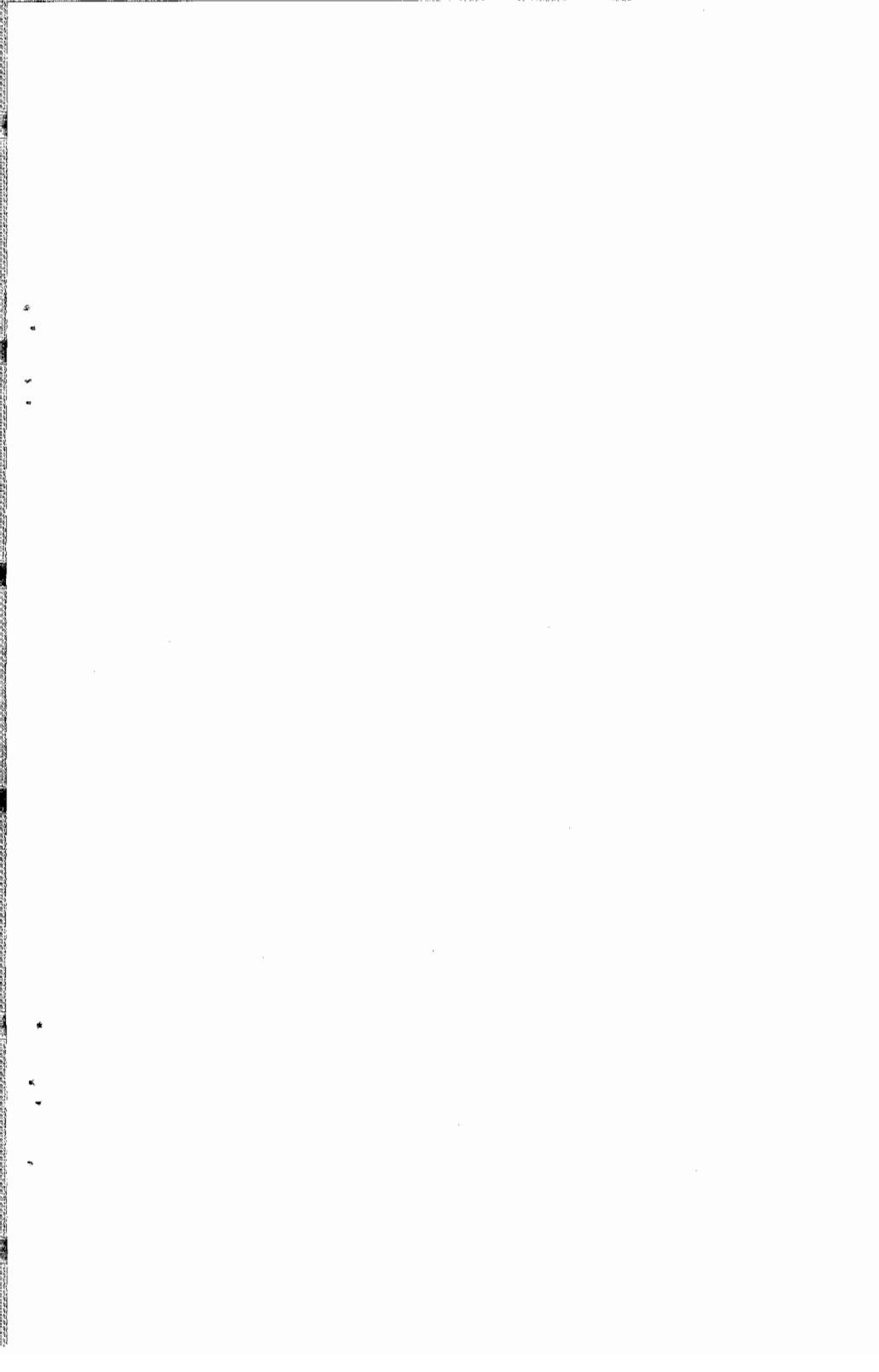
ويدخل في هذا ما حدث للوقت عند الناس حيث لم يعد أحد يشتكى من نقص فرص تزجية الوقت، ولقد كنت مرة في حديث مع صديق من أصدقاء الطفولة، وكنت أسأله ماذَا يعمل بوقته بعد أن تقاعد، فرد علي مباشرة قائلاً: إن الإنترت لا تدع مجالاً للطفس. وهذا أمر واقعي بما إن الإنترت خلقت للناس قيماً تواصلية جديدة وعبر الشاشة تجري ممارسة كل الرغبات جيدها وسلبيها دون رقيب وبأيسر السبل والتكليف.

هذا نوع من الشفاهية يمثل تنوعاً على سبل تعامل الإنسان مع اللغة، بدءاً من لغة الحكى التداولية ذات الصيغة الفطرية، إلى لغة الكتاب ذات التركيب الاصطناعي وهي تقوم على قانون التواصل البعيد زماناً ومكاناً، حيث لا يعلم كاتب الخط عن مآلات كلماته المنقوشة على الورق لا من حيث أبعادها الزمانية أو معابرها الجغرافية، ثم تأتي هذه الشفاهية الجديدة (التكنولوجية) وتفتح كل الآفاق بلا قيود من أي نوع، ويظل البشر يخترعون وسائل من بعد وسائل من أجل كسر حدود التواصل وفتح مجالات الممارسة اللغوية، وهم يتخلصون حتى من الرقيب الذاتي وذلك بالتحرر من الاسم الصريح واستخدام أسماء مستعارة تزعزع كل شرط أو وازع أو تحرج، وهنا يظهر المخبوء

وي Finch المرء عن أشرس ما فيه ويمارس نسقيته في فراغ كوني لا
توقفه الرخص ولا الأذونات.

الفصل الرابع

حكايات الكتاب



بسكليت القراءة

استخدم والدي -رحمه الله- كل وسائله للبحث في عن بسكليت جديد، وقد كان عندي درجة على مقدار جسمي من تلك التي يسمونها (أربعة وعشرين) وهو مقاسها، حيث تأتي متوسطة الحجم وتناسب صبياً بعمر الحادية عشرة من العمر، ولكن جسمي كبر مع الزمن والبسكليت تعرض للإنهاك، ولذا فكر والدي بشراء دراجة جديدة لي بمقاس (ست وعشرين) وتعدن الحصول عليها في سوق عنيدة، ولذا أوصى والدي صديقاً له من أهل بريدة كي يبحث في عن واحدة هناك، ومررت أسبابع دون خبر عن البسكليت، وما جاء الخبر كان بالنفي إذ لم يجد صاحبنا إلا دراجات قديمة مستعملة وهذه لم تكن في وارد الاعتبار، ولذا كان لابد من الانتظار إلى أن يتيسر رجل من الرياض ليأتيني بالدراجة الموعودة، وهذا ما صار بعد تكرم صديقنا البريداوي -رحمه الله- وتکفل لوالدي بإحضار دراجة بتلك الصفات، وكم كانت فرحتي حينما جاء رجل إلى والدي في الدكان في العصرية وقال له خل عبدالله يذهب إلى موقف السيارات القادمة من الرياض ليأخذ بسكليته التي أحضرها سليمان المرزوق معه محققاً بذلك وصية أبي، لقد غمرتني الفرحة إلى درجة أنني لم أستطع ركوب الدراجة فجسمي يرتعش طرياً ونشوة ثم إنها تبدت لي وكأنها أكبر من سني حيث كانت عالية الصهوة وضخمة المقاس وكانت قد تعودت على

الحجم الصغير أقفز عليها كالعصفور وأنط بها من فوق الصخور والطلعات ولا أبالي، أما هذه فهي جديدة وبراقة وكبيرة أيضاً وأنا بإزائها مجرد عصفور فعلاً، ولذا قطعت بها الطريق من الموقف حتى البيت وأنا أقودها سيراً على الأقدام، ولم أقلق لتعليقات كل من مر علي مستنكراً مشيي ويدبي على البسكليت ومردفاً أنني لن أقوى عليها وكانت الاقتراحات تأتي بأن أبيعها وجاءتني بعض العروض المغربية، ولكن أين لي أن أستجيب بعد طول حلم وسخاء الأمنيات والتصورات عن دراجة تأتي من الرياض كأجمل هدية يهديها لي والدي، ولم يكن بد من الاستعانة بعمي عبدالرحمن -رحمه الله- لكي يتوفى تدريبي على ركوب الدراجة الكبيرة والمناورة فيها وكان ماهراً في هذه الأمور، وله خبرة مع الدراجات لا تخلو من طرافة وكان عمي من أطرف الناس ونكته تشيع بين أهل عنيزه، ومنها ما يتعلق بالبسكليتات التي كانوا يطلقون عليها مسمى (حصان إبليس) وكان هناك شيء من الكراهية لها ولذا وصفوها بهذه الصفة، وفي مرة كان عمي راكباً على صهوة دراجته وإذا به يسمع رجلاً يصرخ به ناهراً ومستنكراً: يا الغذامي... تركب حصان إبليس...؟!، فرد عليه مباشرة: لا ياعم.... أبشرك لقد اشتريتها منه، وصارت الآن حصان الغذامي، ولقد شاع خبر هذه النكتة حتى بلغت للشيخ السعدي -رحمه الله- وأرسل من عنده رسول يقول لعمي مبروك عليك البسكليت.

لقد أخذ عمي يدربني على حصان الغذامي الذي لم يعد حصاناً

لإبليس، ولم يفت وقت حتى صرت فارساً مغواراً على دراجتي الجديدة
وتغلبت على الحجم الكبير بعد أن تعلمت كيف أمدد قدمي وأجر ظهري
باتجاه المقود ومع تكرار العملية قهرت الصعوبة وامتنعت بسكلتي^١
في حفلة فرح يومية أمام زملائي في المعهد وفي الحارة.

مرت سنة أو أكثر وأنا أعيش هذه الفرحة حتى جاء يوم طرق فيه باب
بيتنا صديقي الأثير محمد السليم - رحمه الله - وقال لي إن الشاعر صالح
الأحمد العثيمين تعين ملحقاً ثقافياً خارج المملكة وإنه باع مكتبه بما
تحمل من كنوز الكتب واشترتها منه مكتبة اليحى والكتب كلها معروضة
في تلك المكتبة، وهنا انطلقت مع محمد حيثرأينا كل ما يثير وما يغرى
من كتب التراث والدواوين والموسوعات، ولكن أين الفلوس...؟^٢

هنا لم أجد بدأً من التضحية ببسكلتي الأثير على نفسي وعرضته
للبيع وهو الأمر الذي أسأل لعاب كل الزملاء الذين كانوا يغبطونني على
ذلك البسكليت وتمت البيعة مع أول عرض حيث بعثه بمئة وثمانين
ريالاً بناقص عشرين ريالاً من بعد استعماله أكثر من عام. ضحكت
بالدرجة من أجل الكتب، وحينما سألني والدي كيف سأذهب للمعهد
كل صباح علمت أن السؤال كان يضم ملامة خفية لأنني كنت أتعلّل
بأن الطريق للمعهد طويل وأن هذا يسبب في التأخير عن الدروس، وكانت
أقول هذا للضغط للحصول على دراجة كبيرة تذلل في الطريق وتعينني
على الدراسة، وقد حصلت على الدراجة فعلاً ولكنني الآن أعرضها للبيع،
ولم يكن سؤال والدي إلا من باب إثارة النكتة وتذكيري بدعاوي السابقة

ريشة النعام

لست خبيراً بالورق ولكنني صديق قديم للكتاب ومدمن على القراءة، ولست أعرف ما الذي يجعل صفحات كتاب الكامل للمبرد تتكسر صفحاته بين يدي كلما عن لي أن أراجع مسألة من عنده، لقد اشتريت الكتاب بأجزائه الثلاثة 1963 وهو تاريخ سجلته بيدي على صفحة الغلاف الداخلية وبالتاريخ الهجري 1383 باسمي الثلاثي مع الكلمة عنيدة حيث اشتريت الكتاب من مكتبة اليحيا وأظنه كان من الكتب المستعملة وتحديداً من كتب الشاعر صالح الأحمد العثيمين، ولقد ذكرت من قبل قصة سفره وبيعه لكتبه، والكتاب من تحقيق زكي مبارك ومنشور في مصر عام 1936، وهذا تاريخ قديم فعلاً ولكنه ليس إلى الحد الذي تبدأ الصفحات فيه بالتلف، وما يعتري صفحاته من تلف يجعلني أتشبث بالكتاب أكثر وأكثر ولذا أعامله برفق شديد ولا أسمح لأي يد أخرى بأن تمتد إليه، ولقد وضعته في مكان آمن في رف المكتبة خشية أن تمتد إليه يد غير يدي فيجرني لصفحاته ما لا أحمد عقباه.

إنه كتاب أثير عندي ربما بسببه أحبت المبرد وصارت مقولات المبرد جزءاً من مرجعياتي في عدد من أبحاثي، وعنهأخذت فكرة (تكاذيب الأعراب) وهي التي صارت إحدى أهم أعمالي وشغلتني شغلتها كثيراً.

لم يكن كتاب المبرد هو الوحيد الذي امتلكته في صغرى، بعد أن بعث دراجتي الآثيرة على نفسي واشتريت بثمنها كتاباً صارت عندي أساساً لذاكرتي الثقافية والقرائية؛ ويزامن مع هذا الكتاب كتاب آخر له

منزلة خاصة عندي، وهو كتاب (مروج الذهب)، وهو من حيث الشراء كان أسبق من كتاب المبرد بسنة حسب التاريخ المسجل عليه، ولكن طباعته كانت أحدث فهو من مطبوعات 1958، ولست أرى أن ذلك هو السبب في متانة ورقه وحصانتها، والكتاب هذا بأجزائه الأربع ما زال في وضع جيد وقوى على عكس كتاب المبرد الذي تعرضت أوراقه للتكسر وكأنه قطع من خشب وقراءته تحتاج إلى يد رحيمة تتلمس أنفاسها وهي تقلب ورقة على ورقة كي لا تزداد التكسرات وتصيب الكتاب بعطب عميق أو تقضى عليه تماماً.

يحتل الكتابان عندي منزلة خاصة أحدهما لمرضه وعلته التي تجلب له رحمتي وشفقتي، والأخر لما فيه من ذكرى صارت بالنسبة لي بمثابة المفاجأة المذهلة، لقد قرأت مروج الذهب في صغرى وأحببته وظل يترحل معه من عنيزة إلى الرياض، ثم عاد إلى عنيزة حينما ذهبت أنا إلى بريطانيا في السبعينيات للبعثة، وبعد عودتي استجمعت كل كتبى ووحدت مكانها معى في جدة ثم في الرياض، وإن كنت قد تنقلت في حياتي بين عشرة منازل فإن كتبى قد ترحلت معى أيضاً بين عشر مكتبات، وكانت قد اتخذت طريقة رياضية أضبط فيها طريقة ترحيل الكتب بحيث تظل على نظمتها من حيث الرفوف والموضع دون تغيير حفاظاً على ترتيب علاقتي معها وعلى نظام خارطتها المكانية والبصرية ليستمر تعريف على مواقعها دون خلل، وذلك بأن أضع لكل دولاب رقاً وكل رف حرفاً، وتنقل الكتب من بيت إلى بيت حسب ما

هو مسجل على كراتين النقل من أرقام وحروف، وتكون رفوف هذا البيت مثل رفوف سابقه في الترقيم والتحريف، وهذا أراحتي من مغبات الارتباك والتورط في التعرف من جديد على ما كنت أعرف من قبل.

بعد رحلاتي المتعددة وقطعاتي عن بعض كتبني تفاجأت مرة وأنا أقلب في كتاب مروج الذهب أن وجدت ورقة صغيرة تتسلل وتسقط وأنا أقلب في صفحات الجزء الثالث من الكتاب، وحينما كشفت عن الصفحة 357 تهافت تلك الوريقه الصغيرة على الأرض فاللتقطتها مباشرة ونظرت فيها وأخذت أقرأ ما كتب فيها وهو:

(في هذا اليوم المبارك الأغر أقف عند عتبة انتهاء سنه كامله لمصادقتني الكتب ومحادثتها - وتمام ربع سنة لممارستي الإنتاج الأدبي الشعري.

أرجو من الله عز وجل أن يدمبني على القرائه اليومية وأن يهبني زيادة في محبتها وأن يرزقني ثقافة واسعة ومعرفة عامة واطلاعا تاما إنه سميع مجيب. عنيزة. ع. م. غ) - وعلى رأس الوريقه كتب التاريخ

1383 / 4 / 1963

لقد نقلت الورقة هنا بأخطائها الإملائية، و كنت حينها في السنة الأولى ثانوي، والورقة تقول لي إنني بدأت القراءة قبل سنة من تاريخ كتابة الورقة وهي السنة التي توافق تاريخ اكتئاني لمروج الذهب، ومع القراءة بدأت كتابة الشعر.

لا شك أنني ممتن لنفسي الآن أن تركت قول الشعر لأنني اكتشفت في وقت معقول أنني لست شاعراً وأن شعري من النوع الوسط، وهذه

لحظة مهمة في حياتي تقرر بها مسار تفكيري واتجهت إلى ما أتقن بدلاً من الدوران حول ما لا أتقن، ولكنني أتذكر فعلاً أنني كنت أدفع بنفسي لقول الشعر وأطمع لأن أكون شاعراً وأوشكت أن أغلط غلطة عظمى وأنشر ديواني، ولو فعلت ذلك لنخدمتاليومندماً لا مرد له حيث سأكشف عن أضعف ما في قدراتي وأضل عالقاً بغلطتي تلك، ولكن الله ستر.

ولي أن أقول إنني قد فرحت فرحاً طفولياً بروية ورقتي تلك، ورأيت فيها طفولتي عياناً بياناً من حيث خطى وقلمي وأنفاسي وأيضاً عبر أخطائي الإملائية في وقت ما كان يصح لي أن أخطئ في الإملاء، وذلك لأن التعليم في المعهد العلمي كان قوياً والمحاسبة فيه كانت صارمة، ومع ذلك جاءت التاء المربوطة وكأنها هاء مثلما جاءت كلمة القراءة على كرمي، ولا أعرف كيف جاءت عبارة (أن يدمني) بدلاً من يديم علي أو يديمني. هي أخطاء جميلة وأجمل منها خطى -على قبحه الأزيز الذي عرفت به نفسي وعرفني به صحي وأساتذتي، حتى إن الشيخ العثيمين -رحمه الله- اقترح علي مرة أن أغير قلمي، وكان بهذا يوحى لي بأدبه الجم وتربيته العالية أن خطى قبيح، ويقول لي تلميحاً حاول تحسين خطك، وهذا ما فهمته من اقتراحه لي بتغيير نوعية القلم وال何必، كأنما يقول جرب حظك مع الأقلام والأحبار إن كنت يئست من أصابعك. كنت فهمت مراد الشيخ وكبرت رقة الملاحظة وأدب التوصيل دون تجريح ولا تأليم. هي ذاكرة تتسلل وتبقى، ولهذه الورقة عندي معناها الخاص ومقامها الخاص، وهكذا تأتي الكتب لتكون مصدر الربيع الروح ونهراً

من الذكريات وكنزاً من الأنفاس والعرق والإلهام إضافة إلى كونها
معرفة حية تظل معك وتدفع بك لتحقق معاني وجودك وصيغة حياتك.

١٢٨٢ / ١٠ / ٢

في هذا اليوم المبارك الْأَكْرَافُ

كَيْدِ خَيْبَةِ اتْهَادِ سَعْيَهُ كَامِلٌ
لِصَارَتْ حَسْنَ الْكَيْبِ وَحَمَدَتْ لَهُ
وَحَمَامٌ يَوْمَ سَمَّ لَهَارَتْ الْهَيَاَ
وَلَهْدَى اتْصَرَحَ . لِرَحْمَةِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ اسْمَ يَمْعَنِي عَلَى الْهَرَانِهِ الْمُبِينِ
وَرَاهِهِ سَارَةٌ فِي حَدَّرَاتِ حَدَّرَاتِ
نَقَائِفِ نَاسٍ وَفَصَقَتْ حَمَامَهُ مَهْلَكًا
إِنْ هَذِهِتْ سَمِعَ كَيْبِيْبِ، بَهْبَرِ، بَحْ، بَحْ، بَحْ

* مَرْجِعَ الْذَّهَبِ ٤٥٧ / ٢

تقرأ الكتب....؟

إلى الروح الطاهرة: محمد السليم

نتقابل في الشارع... و كنت قد عدت أدرجني من وسط السوق بعد أن
حصلت على نسخة جديدة من ديوان المتنبي جلبها لي أحد معارفنا الآتين
من الرياض، وإذا كنت أسيير متأبطاً كتابي إذا بمحمد السليم يخرج من

الزناق الفرعى، ومن عادتى أن يراه ويرانى في الحارة وفي المعهد وفي الأسواق ونكتفى بنظرة أو سلام عابر وينتهي الأمر عند ذاك، ولكنه هذه المرة يديم النظر إلى ويركز على الكتاب المنطوية عليه يدي وكأنه ملتحم بي، ينظر محمد ويعيد النظر ثم يتوقف، ويسألنى قبل السلام والكلام: (هل تقرأ كتب....!!)، قالها باللهجة العامية السريعة، فقلت له: نعم. عندها غير محمد وجهته وأخذ يسير معى، كان ذلك في منتصف عام 1381 (1961) ومن يومها صارت الصحبة وصارت المحبة وصار محمد الصديق الذى ما اهتزت صداقته معى قط.

كان محمد من قراء الكتب المدمنين وكان يعيش هوايته هذه لوحده ولم يكن أحد من زملائه يشاركه الهواية ذاتها وحينما رأى الكتاب معى أدرك أنه قد اكتشف صديقه الذي يحلم به، ولقد كنا حينها نعيش معاً في حارة المسهرية بعنيزة، تلك الحارة التي تضم بيت أستاذنا وشيخنا عبدالرحمن البطحي وكان بيتنا يقع في الوسط بين بيت البطحي وبيت السليم، وفي هذه الحارة كانت الذكريات التي تجمع مجالس الثقافة في منزل شيخنا وتجمع حركة مرور من نوع خاص جداً، وهي مرور الكتب فيما بين بيتنا وبين بيت السليم حيث صارت الكتب تدور في حركة متصلة أصبحت معها مكتبتي المنزلية ومكتبة محمد خزينة واحدة ولم تعد كتب أحد منا محصورة لصاحبها، يأخذ ما ينقصه مني وأخذ ما ينقصني من مكتبته، وإذا فرغ من كتاب أعاده لي ليأخذ غيره مثلما أفعل تماماً، ثم كانت وجهتنا فيما ليس عندنا من الكتب إلى المكتبة

السعودية، وهي مكتبة أنشأها الوزير عبدالله السليمان وفتحها للعموم، وكنا أنا ومحمد من روادها الدائمين حيث نشأت بيننا منافسة محتدمة في القراءة، وكانت أنظر في دفتر الإعارات في المكتبة وأتابع اسم محمد السليم لأنى متى استعار الكتاب ومتى أعاده، لكي أقارن بين سرعته في القراءة وسرعتي، وهذا ما شكل حافزاً عندي وعنده لكي نطوي ورقات الكتب طيأً، حتى قرأنا كتاب الأغاني ونفح الطيب والنقائض والعقد الفريد والحيوان وكتب التاريخ كالكامل والبداية والنهاية في أيام معدودات لكل واحد منها، وكانت لقاءاتنا مناقشات في الكتب وإذا احتاج أحد منا للتغيير إلى السواليف أو إلى الترويج بحث له عن شخص آخر، إذ ما بيني وبين محمد هو الكتب وما في بطونها، ولا نعرف لغير الجد إذا اجتمعنا.

كنت مرة في رحلة إلى الطائف في زيارة لأعمامي صيف 1962 حيث صرفت هناك كل ما معني من ريالات معدودة على شراء الكتب ومن بينها دواوين الشاعر العربي سليمان العيسى ونزار قباني، ولقد أخذت نسختين من كل ديوان للعيسى لي ولمحمد، ثم حينما عدت لعنيزة وجدت محمداً قد سافر من بعدي إلى البحرين مع أحد أقاربه وإذا به قد اشتري أيضاً دواوين سليمان العيسى مكررة له ولي، ولم تك هذه مفاجأة لي ولا له فكل منا يعرف أن هذا ما سيفعله صاحبه ولا غرابة، وربما تكون الغرابة بل الفاجعة في كل معاني الصدقة لو أن أحدهنا لم يفعل هذا.

ظللت الكتب بيدي وبينه وما زالت مكتبي تخترن نسخاً من كتب

كانت في الأصل في مكتبة محمد.

تعودت علينا حارة المسهرية تلك الحارة التي لم يبق منها في نفوسنا غير صورتها الخيالية، لقد هدموا الحارة وساوها بالأرض، وتركوها برحمة مفتوحة لا معالم عليها ولكن صورتها ما زالت حية في نفوسنا إنها حارة محمد وحارة عبد الرحمن البطحي وحارة الذكريات، ومنها كنا نتحرك معا كل صباح متوجهين نحو المعهد العلمي مشياً على الأقدام، ومرة قررنا السير نحو الوادي (وادي الرمة) ويبعد عن عنيزة عشرة كيلو مترات، نسيرها على الأقدام، ونمضي في الوادي يوماً كاملاً نتحرك فيه ما بين نخيل خالي محمد ونخيل خالي إبراهيم، ثم نعود في المساء على أقدامنا أيضاً، ولا بد أن حساب ما نمشيه في يوم ذاك سيتجاوز الثلاثين كيلومتراً في مجمله، ولم تُنشر بالتعب، لقد كانت الكتب هي حاملتنا وهي مسافتنا وهي لغتنا.

كان محمد شاعراً، ويأتيه إلهامه الشعري في أوقات مbagatة ومرة كنا نسير متوجهين إلى الوادي، وإذا به يتنحى إلى طرف الطريق ويأخذن الهاجس الشعري وفي خلال ساعة واحدة خرج بقصيدة تجاوزت الثمانين بيتاً، كانت قصيدة قومية تلتهبعروبة وحساً ووطنية، وبعد أن تحرك مسار أقدامنا أخذ يرددنا بصوت تشهد عليه شعاب الوادي وسحنات الأرض وكنت أقول له ارفع صوتك فلربما سرى الصوت حتى ليصل إلى سليمان العيسى في دمشق ليعرف أن في بطنه وادي الرمة شباباً يقرؤون دواوينه ويقولون شعراً مثل شعره وينتفضون عروبة

وطنية مثل وطنيه.

كانت القصائد تأتي على لسان محمد وكأنها مطر يتدفق لا يرده حاجز ولا تقف في وجهه معوقات، ولكن محمداً ترك الشعر بعد ذلك واتجه لدراسة الحقوق والقانون، وسافر إلى دمشق في منتصف الستينات للدراسة في كلية الحقوق هناك، وكان يأمل أن يرى حبيباً كلنا سليمان العيسى هناك، وكم كانت صدمته عنيفة حينما اكتشف أن شاعرنا لم يعد هناك، وهذه هي أول كلمة قالها لي في أول رسالة يرسلها إللي: (صديقنا ليس هنا)، وقد كان يعرف أنني كنت أغبطه على تلك الفرصة غير أنها فرصة لم تتحقق.

ظل محمد محبًا للشعر وملحًا للعروبة والوطنية حتى وقد ترك كتابة الشعر وقوله، وظلت صداقتنا عامرة مثلما ظلت مكتبة كل واحد منها تحت تصرف الآخر.

ظل كل شيء جميلاً وسعيداً... حتى جاءتني مكالمة من أخي علي، وكانت في بيتي مرتاحاً وعلى وشك أن أنام عند التاسعة مساء، وإذا بالهاتف يأتي ليقول لي: هل تعلم عن محمد السليم....؟ خفت من السؤال وأحسست بجفاف في ريقني حتى تعثرت كلماتي، وهنا سمعت صوت أخي يقول: رحمه الله....!

راح محمد.... انتقل إلى ربه وتعود تلك النفس الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية.

ضاعت الكلمات، وأكملها أخي علي قائلاً سأمر عليك غداً عند

التسعة ونذهب إلى عنزة للصلوة عليه، سمعت كلمات أخي بصعوبة حتى لم أستطع أن أرد عليه بنعم، ولم أرد عليه وهو يسألني إن كان هذا التوقيت مناسباً لي أم لا.

ذهبت إلى هناك حيث كانت الصلاة في جامع الشيخ العثيمين كنت أصلي على جنازة محمد و كنت أحس بوالدي وبوالدتي وبالشيخ السعدي والشيخ العثيمين، تلك وجوه جمعها هذا الجامع، تذكرت نفسي وأنا صغير بجانب والدي في صلاة الجمعة وتذكرت آخر صلاة لي في هذا الجامع وقد كانت صلاتي على والدتيوها هو محمد معهم في رحلة الخلد والنقاء. رحمة الله على الجميع.

في هذا الجامع الذي تفتقت ذهاننا فيه على صوت الشيخ السعدي، وكم كان محمد يحب ذلك الشيخ وحينما كان محمد طفلاً كان وجه الشيخ أكثر الوجوه تقبلاً في ضميره، وكان يقول في بعد أن كبرنا معاً كيف كان للشيخ معنى خاص عنده، معنى من صنع الطفولة وتهياتها العميقية، وهابه محمد يودعنا في محراب الشيخ وفي مسجده وهابه يدفن في عنزة مختلطًا بطينها ومائتها وعروق نخيلها.

رحمك الله أيها الحبيب. وأنت الباقي في القلب لا تزول.

كتاب على كتاب

من أعرق الأصول العلمية هو القول على القول، وذلك حينما يأتي رأي أو قول مجتهد فيثير ذلك شهية المعاصرین واللاحقین على شرح

هذا القول أو تأويله أو معارضته، وهذا باب علمي عريض تأسست عليه المعرفة البشرية عبر التراكم والتتابع وتلك هي الشجرة العلمية البشرية، وكتب التراث تشهد على هذه التفاعلية الحية، وكثيراً ما ترى الكتاب الأصل قد تفرع إلى كتب عبر الحواشي التي لا تقف عند حد إذ يتبع الحاشية حاشية أخرى، أي حاشية على الحاشية، وتتطلق من المتن الأصل مؤلف معين إلى شرح يقوم به تابع له ثم يأتي من يضع حاشية على المتن والشرح معًا، وقد تجد من يضع حاشية على حاشية، وربما اكتشف أحد هؤلاء أنه قد وضع كتاباً أكثر اتساعاً وإحاطة من الأصل كما جرى مع كتاب القاموس للفيروزبادي حيث هم الزبيدي بشرحه ووضع حاشية تحت نية شرح القاموس فإذا به ينتهي إلى كتاب ضخم سماه (تاج العروس) وصار هذا معجماً لغوياً قائماً بذاته، وهو في الأصل حاشية وشرح للمتن الأول.

ولقد حدثت لي تجربة حية و مباشرة مع هذه العملية العلمية الحية وذلك في مجلس الدرس مع الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله- وعندي وبخط يدي شروحات له كان يمليها علينا على متون الكتب، ومنها شروحات له على كتاب (شرح ابن عقيل) في النحو، وكان يدرسنا النحو في السنة الثالثة المتوسطة، والمقرر هو شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وفي مطلع العام وزعوا علينا الجزء الأول من الكتاب وهو متن ضخم يغطي أهم المداخل النحوية، وكان الكتاب مغلفاً بغلاف ورقي، ومن حرص الشيخ على الكتاب وعلى مستقبلنا مع ما في الكتاب من علم

وما يخططه الشيخ من نية في الشروحات والتعليقات، فقد قام بجمع الكتب من أيدينا ثم أرسلها مع أحد من يثق بهم إلى الرياض وذلك من أجل تجليدها، وقد جلسنا ندرس لمدة أسبوعين من دون كتب انتظاراً لعودة كتابنا من الرياض بعد تجليدها، ولقد نبهنا الشيخ إلى كتابة اسم كل واحد منا على كتابه حتى لا تختلط النسخ بعد عودتها مجلدة من الرياض، وهذا ما صار وما زالت أحافظ بالكتاب مجلداً وعليه اسمى وتاريخ تسلمي للكتاب (1382 / 1962) وفي داخل الصفحات كانت تعليقات الشيخ التي كان يملئها علينا ونحن نكتب، وما زلت أرجع إليها كلما احتجت إلى فك أسرار مسألة لغوية أو نحوية، وكان من فضل الشيخ علينا أنه رجل جاد ومهيب حتى لم نكن نجرؤ على العبث في الفصل حين حضوره، بل إنك ليصعب عليك أن تنطلق في الهوا جيس أو الغفلة عند الدرس فهو -رحمه الله- على درجة من التيقظ والتنبه حتى ليلاحظك فيما لو سهوت أو سرحت أو يحتال حينها بحيلة تعيدك إلى الانتباه وذلك بأن يطرح عليك سؤالاً مفاجئاً أو أن يركز نظره عليك، وهذا ما جعلنا على حال من الحضور الذهني التام معه، ولقد كان النظام الدراسي في تلك الفترة أثنا ندرس عاماً دراسياً كاملاً دون امتحانات شهرية ولا نصفية، وعندنا امتحان واحد في نهاية العام، ومن ديدتنا أثنا نهمل في المراجعة ولا نشرع في المذاكرة إلا حين اقتراب موعد الامتحان بشهر تقريباً، وهو الشهر الوحيد في السنة كلها الذي نتعامل فيه مع المقررات مذاكرة وتعيناً للتجهيز لـ يوم الحسم، وهنا

أذكر أنني استبعدت درسین من مذاكرتي أحدهما مادة العروض، حيث إنني أتقنت البحور الشعرية والأوزان من أول درس عرفت فيه فك لغز الإيقاعات الشعرية بسبب مهارة عند أستاذنا عبدالله الحسن البريكان -رحمه الله- في إقبال رسالة الخليل بن أحمد لنا حول موازين الشعر، أما المادة الثانية فكانت مادة النحو وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وما كنت بحاجة لمذاكرتها وما كنت خائفاً من الامتحان فيها، مع صعوبتها الكبرى خاصة على سن فتيان في الخامسة عشرة من أعمارهم، وذلك لأن طريقة الشيخ في التدريس وفي جدية التعامل كانت قد ثبّتت الموارض في نفوسنا، وما زلت أتذكر الكلمات وأرى في مذاكرتي البصرية الصفحات واللفتات، حتى بعد مرور خمسين عاماً على مجلس الدرس مع الشيخ، وهذا الكتاب الذي درسناه في المرحلة المتوسطة تحول الآن ليكون مادة تخصصية جامعية ويرى الطلبة اليوم أنه صعب ومعقد. لقد صرت أعود بمذاكرتي لتلك الأيام وأتعجب فعلاً كيف كنا نتحمل كل ذلك الكم من المعرفة التخصصية ومع أستاذ مهيب بحجم الشيخ ومقامه، ومثل شيخنا العظيمين كان شيخنا علي الزامل -رحمه الله- وهو رجل وصفه عارفوه بأنه أنسى أهل زمانه وذلك لشدة تبحره في النحو واللغة، إضافة إلى علمه الشرعي وثقافته الواسعة حتى في علم العروض، وكانت أجلس في مجلسه في العصريات وأنهل من علمه اللغوي والشعري، أما في المعهد فكان يدرسنا أصول التفسير، إضافة إلى التفسير، ويتبع أسلوب الرواد من أهل العلم بإملاء

شروحاته وملحوظاته على المادة، وشروحاته عندي لما تزل، ومنها نهلت وما زلت أنهل علمًا عظيمًا وفقهاً عميقاً في تفكك المصطلحات والمفاهيم.

وفي آخر سنة لنا في المعهد كان موعدنا مع مادة (أصول الفقه) ومع الشيخ العثيمين، وهذه مادة كانت من أحب المواد إلى نفسي، ومنها ومن الشيخ تعلمت أصول المعرفة وزادت فتنتي بالمصطلحات والنظريات والمفاهيم منذ ذلك الزمن، وكان الكتاب المقرر هو كتاب (شرح الورقات في أصول الفقه) لأبي المعالي الجويني، وهو إمام شافعي ألف هذا الكتاب المعمق والمكثف وهو ورقات من حيث العدد ولكنه كنز معرفي عميق شغل من جاء بعده، وأولهم جلال الدين المحلي وهو عالم شافعي آخر شرح الورقات، وكان من حسن تدبير رئاسة المعاهد العلمية أن قررت علينا هذا الكتاب الكنز ثم صار لنا حظ عظيم حيث درسناه على يدشيخ محب للمصطلحات ومفتون بالأصول المعرفية ولغة المفاهيم، وهنا كان الشيخ محمد يشرح لنا وي ملي علينا تعليقاته، ولن أنسى أبداً درسه الأول عن مفهوم (التقليد) وكيف تبحر في هذه المفردة لغوياً من وضع القلادة على العنق، وراح يطيل في هذه القضية حتى صرت أتبين عملياً كيف هي حال الشخص إذا كان مقلداً وكأنما يقاد بالحبل مثل الدابة.

أخذ المعنى اللغوي من نفسي مأخذًا حساساً جداً، وظللت أتصور القلادة في الرقبة، ولم يتركني الشيخ مع خيالي هذا حتى شرع في كشف

المعاني الاصطلاحية للتقليد، وهو يأتي بتفسيرين للمعنى أحدهما: هو قول الرأي بلا حجة، والثاني: قبول قول القائل وأنت لا تدرى من أين قاله ولا تعلم مأخذة في ذلك.

كان الشيخ يقول لنا هذا ويفعله معنا عملياً، ولذلك فإن ديدن الدرس عندة أن تقول الأفكار على الدليل والبرهنة، ونقف وقفات طويلة وممتدة على الأسئلة ومتابعة السؤال بالسؤال حتى تستنفذ كل ما في طاقتنا من المحاجة والتساؤل، ولم يكن الشيخ يتتردد في إيقاف أحدنا مدة من الزمن والشيخ يطرح عليك السؤال من بعد السؤال وأنت واقف بين زملائك وهم جلوس ورأسك يدور بك ولسانك يلاحق الإجابات التي يقندها الشيخ واحدة بعد أخرى ليعود بك إلى نقطة البداية، وإذا احترت واحترار من معك في القاعة تكلم الشيخ، وقد يشفى غليلك من نفسك حينما يكشف لك أن المسألة هذه لا جواب عليها، أو أنها تحمل أجوبة متعددة أو أنها مما توقف عنها العلماء، من مثل مسألة (التعارض) بين مسالتين، وبائيهما نأخذ، وفيها أربع مراتب - كما أملى علينا الشيخ من بعد حوار طويل وكنت أنا موضع التجربة في تلك المسألة ولذا رسخت في ذهني بعد أن أوقفني ساعة في النقاش من بين كل زملائي - والمراتب الأربع المسجلة عندي على ورقى وبإملاء الشيخ هي:

1 - الجمع بينهما إن أمكن.

2 - أن نعمل بالتأخر إذا لم يمكن الجمع وعلمنا بالتاريخ.

3 - أن نعمل بالراجح إذا لم يمكن الجمع ولم نعلم التاريخ.

4 - التوقف.

ولقد كانت المسألة التي طرحتها علي تستدعي المرتبة الرابعة، وكان الشيخ في ذلك يحاول تدريبنا على الموضعية العلمية في خوض تجربة الأسئلة ومعاينة كافة الاحتمالات الدلالية والاستنتاجية.

هذه كلها تجربة حية عشتها مع شيوخ أجياله في ممارسة الفعالية العلمية وبناء الهرم العلمي، أو ما سميته هنا بالكتاب على الكتاب، والقول على القول.

وأخيراً أشير أن الشيخ -رحمه الله- قد أخرج بعد ذلك كتاباً وافياً بشرح نظم الورقات في أصول الفقه، حوى المسائل الأصولية كلها، ولكنني ظللت وفيما لكتابي الخاص وعليه تعليقات بقلمي من إملاء الشيخ، وأحسها تحمل عرق جبني وأنفاس حياتي وتعيدنا إلى سني الطلب في المعهد العلمي وتحديداً عام 1964 حيث كان الدرس وكانت السنة النهائية في المعهد قبل النقلة إلى الرياض في كلية اللغة العربية. وعلى مدى السنين ظل الكتاب يصحبني ويرفدني معرفياً ونظرياً، في علم هو من أعظم علوم التفكير المعرفي والمنهجي، وأنا مدين في وعيي النظري لهذا التأسيس المبكر في حياتي.

شيمته الكتب

كنا في الثامن من مارس 1972 حيث خرجنا معاً أنا ومحمد الهدلق من المكتبة المركزية في جامعة أدنبرة / أسكوتلاند، وكانت الساعة

الثانية عشرة ظهراً حيث هو وقت الغداء والراحة لمدة ساعة حتى الواحدة، ولكن محمد الهدلقي تلك المرة لم يكن في خطته غداء ولا قهوة، وقد علم بالأمس عن مكتبة تجارية تبيع الكتب المستعملة وذكرها في فقررنا معًا نستغل ساعة الراحة هذه بزيارة لتلك المكتبة، وهناك وجد كل واحد منا بعض ضالته حيث تسليت أيدينا وسط رفوف الكتب القديمة ما بين مسرحيات شكسبير وروايات ديكنز وأعمال ديفيد هيوم، ولهذا الفيلسوف نكهة خاصة في مدينة أدنبرة فهو أسكتلندي، وتحمل إحدى بناءات الجامعة اسمه: برج هيوم، وبه وبغيره تكدرست أيدينا كتاباً ومعها حماس رفيع في نفوتنا، كيف لا، وهي كتب مهمة جداً وبطبعات عريقة وتاريخية، وفي الوقت ذاته هي رخيصة، وستعمر مكتباتنا الخاصة بهذا المهم والرخيص، ولم أنس منظرنا ونحن عائدين من رحلة المعرفة تلك، ومحمد الهدلقي يمسك بيده كتاباً من هذه الكتب وهو يسير على طرف الرصيف، ويفحص سعره الذي كان مجرد (بنسات) ولم يصل حتى لربع جنيه، ولم يفته أن يقول لي: انظر لهذا السعر ولهذا الكتاب، ولهذا ولذاك، ويعرض الكتاب واحداً واحداً، ثم يقول: إن الواحد منها بسعر كوب من القهوة، وماذا لو أننا اشترينا قهوة بدلاً عن الكتاب، ولا ينسى محمد هنا أن يقارن بين مصرير كوب القهوة بعد استهلاكه حيث سينتهي عبر مسارب الصرف الصحي بعد دقائق من شربه، مقارنة بالكتاب ومصيره عبر سراديب الدماغ حيث لا يذوب ولا يتسرّب.

كنت أتمها معه وأقول له: نعم، نعم، مدركاً أنني أنا وهو كنا نلابع أنفسنا ونسليها عن ساعة راحة أهدرناها ولم نتفدوا لم نحتس قهوتنا، وعدنا إلى عملنا في المكتبة المركزية، وواصلنا الجد بالجد والكتاب بالكتاب.

أذكر تلك الرحلة بتاريخها المسجل على صفحات الكتب التي اشتريتها يومها، وما تزال مكتبتي معمورة بتلك الكتب الإنجليزية التي جمعتها من مكتبات بريطانيا بطبعات قديمة، بعضها صار الآن نادراً وتراثياً، وهي كلها ترتبط عندي بصورة الهدلق وذاكرته عندي. ولقد رددت له الرحلة تلك برحلة مثيلة لها بعد أن تفرقت بنا الديار حيث انتقلت أنا إلى إكستر (جنوب غرب بريطانيا) وجاء محمد لزيارتانا نازلاً من الشمال إلينا، وأخذته يومها إلى مكتبة تبيع الكتب القديمة والمستعملة (العين بالعين حيث قصاصنا بالكتب) وراح محمد يشتري منها بمنهم نعرفه عنه في حبه للكتب وحرصه عليها، ولن أنسى الرجل الإنجليزي، صاحب المكتبة، حينما سألني بعد شهر من تلك الزيارة: أين صديقك، ولم يعلم أن الهدلق قد جاء لزيارة سريعة وأنه يدرس في الشمال في أدنبوره، إنها بعيدة بعيدة، وهذه هي كلمة صاحب المكتبة حينما سمع قوله عن الهدلق وأدنبوره، وهكذا هو الهدلق رجل تتذكرةه الكتب ويسأل عنه أصحاب المكتبات، وإن كان هذا حدث لنا معاً في مطلع السبعينيات من القرن الماضي أثناء بعثتنا في بريطانيا إلا أن علاقتي بمحمد قد ابتدأت قبل ذلك بعشر سنوات، وعلى التحديد عام

1385 / 1965، وهي أول سنة لي في الرياض في كلية اللغة العربية وقد سبقني محمد إليها بثلاث سنوات، ولكنه كان صديقاً لابن خالتي منذ زمنهما معاً في شقراء، وقد جاء إلى زيارتنا في منزلنا الظاهري، ومن أول لحظة لقاءبدأ بیننا نقاش في الكتب والثقافة، و كنت حينها أقرأ في ثلاثة نجيب محفوظ، وكانت أحداث الروايات تتذبذب على لسانني بين زملاء السكن، وهذا ما فتح باباً للكلام مع الهدلقي الذي كشف لنا وقتها عن ثقافته وبصيرته في الكتب والأدب، ومع قراءتي لمحفوظ وقتها وتماهي الهدلقي في الحديث عنه وعن العقاد وزكي نجيب محمود، فإنه قد لاحظ أنني أشتكي من دموع في عيوني، ولما أبلغته أنني راجعت الدكتور الخولي، بادر محمد وقال بلهجة مصرية متقدة: عندك تراخوما، عاوز عملية، وقد تعجبت من تقليده للكلام ثم من كشفه ما قاله في الطبيب، مما جعلني أسأله عما إذا كان حاضراً في العيادة حينما كشف على الطبيب، فقال لا، ولكن هذا هو ما يجده الناس عند ذلك الطبيب، وعيادته جنوب البطحاء مسرح لهذا كله، تلك لحظة ظلت بصورها الجاد منها والهازل تمثل في صورة محمد الهدلقي المستمرة معى، فهو رجل من أشد الناس وأقواهم جدية وصدقاؤه حرصاً وفي الوقت ذاته هو إنسان ظريف ومتحدث من ومزاج عميق المعنى وراسخ الرؤية.

عرفت محمد الهدلقي على مدى خمسة وأربعين عاماً، وعرفه عدد غيري من زملاء البعثة في بريطانيا، وخبرته أنا على مدى هذه السنين

كلها، وكان أحسن ما في الأحسن الشيم - باستعارة كلمات المتنبي -
وشيمة الهدلق هي الكتاب والكتب، وما مر علي يوم احتجت فيه
لكتاب لا أجده في مكتبتي إلا وجدته عند الهدلق، ولا أحتاج إلا للكتابة
هاتفيه قصيرة ويأتيني الكتاب إلى حدي، ولذا فإن مكتبة الهدلق
الخاصة صارت عندي امتداداً مكانيّاً ومعرفياً لمكتبتي، وأخص بذلك
كتب التراث، واسم محمد الهدلق يتوج كلمات الشكر في عدد من
كتبي، وصورته الذهنية وجرس اسمه يرن في ذاكرتي كواحد من أعز
من عرفت وأصدق من زاملت وقف بوفاء بجانبي وجوانب الزملاء
كلهم، فهو همزة الوصل في قصصنا كلها، وهو الذي يجمع صفحات
الذكريات كلها بأنواعها كلها المازح الهازل منها والجاد الصارم.

كنت أقول له - وما أزال - إنك يا محمد تجني على نفسك وعلى العلم
والأكاديمية حينما تتقاعس عن جمع بحوثك في كتب تبوبها حسب
انتظام البحث، وكان يرد علي قابلاً ومصادقاً على قولي، وظل وفياً لهذا
الجواب على مدى سنوات وما زال وفياً في جوابه وأنا وفي في ملاحظتي،
ولكن: لا كتب، ولا اسم محمد الهدلق على أي كتاب مطبوع، وتظل
بحوثه حبيسة الدوريات والمجلات العلمية، ويفضل هو وفياً ومخلصاً في
تكرار الجواب كلما كررت أنا التساؤل. ولكنني أقول إن محمد الهدلق
لو طبع بحوثه في كتب لصارت كتبه مراجع من أهم مراجع الجامعات
العربية في مجال التراث النقدي، وهو مرجع علمي موثوق ومعتبر في
موضوع النقد العربي القديم، وليته يتم معروفة مع العلم والثقافة

ويحسم أمره ويطبع كتبه. ألا تفعل يا محمد وأرجو أن تكرم محبتي لك وتقديرني لك بقبول طلبي هذا وتحقيق وعدك الذي ظللت وفيأً له.

وكم كنت أرى محمد الهدلقي وكأنما هو الوجه الآخر لي، الوجه المغاير، وليس هذا بمعنى النقيض ولا بمعنى السالب، ولكنه الصورة المعاكسة، أي أنني أنا رجل مندفع لا تهمني حسابات الخطوة وأقول فكري بلا تحفظ ولا تحسب، بينما هو رجل دقيق ومدقق في خطوه وفي نظرته، وهذا ما يجعلنيأشعر دائمًا بحاجتي لرأيه لأجعل من مشورته صمام ضبط وزن لحركتي، وأنا الرجل الذي ديدنه المغامرة والاقتحام وصاحبى ديدنه الحكمة والتروي، ومن هاتين الخصلتين المتغيرتين، ولا أقول المتناقضتين، نشأت حالة من الثقة في نفسي تجاه صاحبى، خاصة أنه رجل مخلص وصادق ولا يجامل في رأيه ولا يحسد أو يغار أو يبخل، وتلك عوامل تشجيع وإغراء، وفي آخر محاضرة عاممة لي في الجامعة كان محمد الهدلقي يجلس في الصفوف الخلفية من القاعة، ولم ألحظ هذا ولكن بعض الزملاء ذكروا لي ذلك قبل صعودي إلى المنصة، وما كان ذاك بموضع سؤال عندي، وصارت المحاضرة وانتهت وهو لما يزل في موقعه الخلفي، وبعد ذلك بيومين قابلته في ممر الكلية، وحينها بادرني بالثناء على المحاضرة وقال لي إنه كان متخوفاً منها حتى إنه رفض توقي إدارة الجلسة تلك لأن الموضوع عن القبائلية، وخشي من حساسية الموضوع وانفجار الموقف لما في الأمر من محاذير، ولذا حضر محاذراً ومتخوفاً على صاحبه مما قد يحدث، ولكنه وهو

يقول هذا راح يثنى على المحاضرة ويثنى على طريقة العرض حيث راه يعتمد أسلوباً موضوعياً محايضاً لا يسيء لأحد، وظل يهنتني على حصافة العرض وحسن التخلص مما عكس مخاوفه وبدد شكوكه، وجعله يغير رأيه في المحاضرة.

قال هذا ولم يفتني أن اصطاد اللحظة بنكتة أو نكتتين معه، مع كل ما في نفسي من تقدير له على وضوحيه من جهة وعلى صدقه مع نفسه من جهة أخرى، حيث لم يجامل الصدقة على حساب الموقف، ثم ختمها بأن ذكر لي قصة رفضه لرئاسة الجلسة، وقال كامل قصته معي ومع المحاضرة ورأيه النهائي فيها.

هذه صورة لمحمد الهدلق الصادق من جهة والصارم من جهة ثانية والواضح من جهة ثالثة، وهو الرجل النقي في قوله وفي تقديميه لنفسه. ولن أختم حديثي قبل أن أشير إلى أن محمد الهدلق يقف وراء مجئي إلى جامعة الملك سعود، ولو لا موقف خاص وشجاع منه لتعطل أمر معاملة نقلني قد تعرضت لها مرتين كادتا تفسدان الموضوع وأنا غائب هناك لا أعلم ما يحدث، ولو لا نباهة أبي خالد وصدق الوقفة منه لما جئت إلى الرياض وقد أكون هناك في هولندا أو الإمارات أو هارفارد، وتلك قصة لم أقرر بعد كشف كل تفاصيلها، غير أنني -حسب- أنساب الفضل لصاحب الفضل، وأشير بالتقدير لدور هذا الرجل الوفي والصادق: محمد الهدلق.

رجل قتله الكتب

عقل غيرك تضييفه إلى عقلك

عاش الجاحظ في الكتب ومات في الكتب، حيث مات وعلى صدره كتاب، وكانت الكتب قد تساقطت عليه وغمرت أنفاسه وهو مصاب بداء الفالج وهو الداء الذي أعاقد جسده ولكن لم يعق حبه للكتب، لم يتزوج الجاحظ ولم يخلف ذرية وليس له عصبة عائلية وقد خرج من عالم الظلمات والتهميش، ولو لا علاقته بالكتب لما صار ولا مر على بال أحد. ولكنه ولد وفي فمه وحشة للكتاب، وقد شق طريق حياته كله في بحث أبيدي عن الكتاب، وفي مطلع حياته كان يستأجر دكاكين الوراقين في الليل حيث هي مغلقة أصلاً ولا نفع فيها في وقت الليل، إلا أن الجاحظ حول غير النافع إلى نافع، وإذا استغنى التاجر عن دكانه ليلاً فإن الفتى جاحظ العينين سيكتشف طريقة يستثمر فيها هذا الوقت الضائع، وهو إذا استأجر دكان الوراق فإنما ليقضي ليلة كاملة على سراج بسيط يقرأ في الكتاب حتى إذا جاء الصباح سلم الدكان لصاحبها ومضى هو لينام بعد أن ترحل ليله كله في صحبة العقول البشرية المسجلة على الورق، ومن هنا جاء تعريفه البارع لهذا النوع من الحياة بقوله: (والأدب هو عقل غيرك تضييفه إلى عقلك).

القراءة عقل مخبوء في كتاب ويتحرك هذا العقل مع تقليل

الصفحات وأنت ترى البشر أمامك على الورق وهو البشر الذين رأهم الجاحظ وأخذ عنهم وتربي عقله عليهم، وقد كسب الجاحظ عصارة الفكر البشري في زمانه وجاءت ذاكرته متنوعة ومعمورة بلغات الآخرين وكلماتهم ومعانيهم، وعبر هذا الخليط العقلي واللغوي والمعلوماتي جاء الجاحظ ليفيض بهذه البحار ويتدفق بمياهها، وإنك لتري الخليط الثقافي العجيب لدى أبي عثمان بدءاً من موسوعته عن الحيوان إلى معارفه بعلوم العرب وأعرافهم وحياة الأعراب ولهجاتهم وأخبارهم إلى تبحره في (علم الكلام) وريادته لمدرسة كلامية تسمى باسمه، ويحيط بهذا كله ظرف وذهن ثاقب توسل بالاستطراد كحيلة ثقافية لتغليف رسائله الخاصة من تحت المتن الرسمي، فكتب نوادره ورسائله ومبازاته الكلامية والأدبية وكتب عن البخلاء وقصص الأعراب وحكايات أهل المدن وعجائب البشر، في خليط ثقافي يضم خطابات مزدوجة ما بين المداهن للمؤسسة الرسمية والاجتماعية حيث المتن بوقاره وتحصن، وما بين الخطاب النقدي الذي يتستر بستر السخرية والنادرة ويأتي وكأنما هو طرفة ونكتة، وهو في صلبه نقد لاذع وتشريح للمؤسسة وفضح لسلطويتها ولا تنقصه الحيلة في ذلك حيث يراوح خطابه النقدي بين النوادر وبين المحاورات المفترضة التي يجريها على السنة المهمشين من الجواري والغلمان والسود وكافية أنواع الفئات البشرية من أعراق وثقافات وطبقات، وهي

كلها حيل ثقافية توسل بها الجاحظ لعرض سوءات المجتمع
وأنساقه الثقافية بكل تفاصيلها.

ولقد كان من أمثال العرب قولهم: كل لسان إنسان، وهو مثل
ترابه حيًّا في صنيع الجاحظ، حيث استخدم السنة المجتمع كلها
للتعبير عن مكنونات نفسه. وإن كان الشعراء يحتالون بالمجاز
الشعري تحت مفهوم أن أجمل الشعر أكذبه وأنهم يقولون ما
لا يفعلون، وأن قولهم هو قول لا يحاسبون عليه؛ فإن الجاحظ
توسل بالسخرية وأسلوب الاستطراد لكي يرفع عن كاهله اللوم
فيسوق الظرفة مساق الإطراب والتسلية مثلاً ما يسوق المحاورات
بين الفئات مساق التندر والتطرف فيمر خطابه غير مراقب ولا
محاسب مثله مثل المجاز الشعري، ولكنه في الحقيقة كان يرسل
رسائله الخاصة ويقوم بإيصالها ببيان عميق وتوثيق ثقافي خالد،
ولقد صار القوي والفاعل من حيث هو ضعيف بلا عصبة ومن
حيث هو مفرد ووحيد ولكن ذكاءه وصلاحه الثقافي فرض لغته
ومقولته على الذاكرة الثقافية في تاريخ الفكر العربي كله.

بدأ بالسخرية من نفسه فروى أن قوماً ذكروا اسمه لل الخليفة
المتوكل ليأخذوه مربياً لبعض ولده وذهب الجاحظ لإجراء مقابلة
لهذا الغرض وهنا يروي قائلاً إن المتوكل حينما رأني استبشر
منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني. ومثلها ما رواه عن
قصة له مع فتاة حيث يقول: أتنبي فتاة وأنا على باب داري فقالت:

ي بـك حاجة وأريد أن تمثـي معي، فقمـت معهـا إلى أن أـنت بـي إلى صائـغ يـهودـي وقـالت لـهـ: مثلـ هـذا وانـصـرفـتـ. فـسـأـلتـ الصـائـغـ عنـ قـولـهـاـ فـقـالـ: إنـهـاـ أـنـتـ إـلـىـ بـفـصـ وـأـمـرـتـنـيـ أـنـقـشـ عـلـيـهـ صـورـةـ شـيـطـانـ، فـقـلـتـ لـهـاـ: يـاسـتـيـ ماـ رـأـيـتـ الشـيـطـانـ، فـأـنـتـ بـكـ وـقـالتـ ماـ سـمعـتـ.

روى الجاحظ هذه القصص عن نفسه مستثمراً بذلك قبحه ليكون سلاحاً ثقافياً يقاوم به السلطة الاجتماعية التي تمرست في التهميش وكان هو قد جاء من قاع التهميش وقرر أن يعرى لغة المجتمع وحيله النسقية في الإفراد والإلغاء، ولذا وضع الخليفة من جهة والفتاة من جهة أخرى في سلم ثقافي يكشف عن مجتمع وثقافة تحمل عيوبها الخاصة مثلما تحمل أمجادها، وهو قد وضع الوجهين معاً حيث كشف عن لغة العرب بأبهى صورها البيانية وناجح عن مقام الثقافة العربية في مقابل الشعوبية المحتدمة حينها، وفي الوقت ذاته عرى عيوب المجتمع العباسي، في تقابل بين كافة الوجوه الثقافية، وتبعاً لذلك التزاوج بين مستويات الثقافة فإنه سجل مستويات الأداء اللغوي بين البسطاء وال العامة وبين الفصحاء وعلية البلغاء، وكلمة (ستي) في هذه القصة مفردة تدل على لهجة شعبية لم يغفلها الجاحظ ورصدها مثل رصده لخطب أهل البيان، ولعل عنوان كتابه (البيان والتبيين) يدل على هذين البعدين في المستوى اللغوي حيث مصطلح البيان للعلية بينما يشير

التبين إلى لغة التداول اليومي في تقابل مستمر عند الجاحظ بين المتن حيث المؤسسة الثقافية الرسمية، وبين الاستطراد حيث الثقافة الشعبية، وأول مواد الثقافة الشعبية هي القص الشفاهي وما داته التي يبدأها بنفسه وبتشريح جسده وشكله وتاريخه ويسببها لتشمل أعلى رؤوس المؤسسة السياسية والدينية والثقافية.

لقد كان الجاحظ مثالاً للمثقف الحر والناقد المعارض ثقافياً، عاش بالكتب ومع الكتب، ومات بالكتب.

قتلته الكتب وهو الرجل الذي افتتح كتابه البيان والتبين مستعيناً بالله من (فتنة الكلام) وكان حريصاً على أن يعيش واقعياً ولا يتعانى على طبقته التي جاء منها ولم ينس أبداً أنه من الهاشم وأن قبح وجهه ظل معه مذكراً له بماضيه الشعبي وحاملاً لهذه العلامة في علاقته مع المجتمع حتى صار القبح سمة له وتسنمى به، حيث كلمة الجاحظ جاءت بسبب جحوده في عينيه جعلت الناس تسميه بهذا الاسم ولم تكن هذه التسمية منه ولا من أبيه ولكن الناس وسموه بعيبه الخلقي حتى صارت اسمًا له وتقبل هو هذه السخرية واتخذها اسمًا له ليدين مجتمعه مثلما تقبل نكتة الفتاة عليه وتصرف المتوكل معه ورواهما، لقد حمل هذا الاسم وجعله علامة عليه وعلامة على عنف المجتمع وسخريته، قبل بالعلامة الفارقة اسمًا له وعنوانًا عليه، وتوسل بها لترقيق مشاعره عن حاله وفي الوقت ذاته وظفها كمنهج ن כדי يكشف سيرة المجتمع

مع المختلف والمخالف، وعبر هذا عاش الجاحظ فرداً وظل قيمة فردية لا يُستند إلى عصبة ولا يتبع غيره حتى من الناحية الفكرية حيث أسس لمنهجه الخاص وصنع منهجية فكرية دينية تسمى بالجاحظية. هو المفكر الذي أضاف عقول الآخرين إلى عقله ومن هذا تعددت عقوله وتعددت كتبه وتعددت رؤاه وتتنوعت أساليبه، وسيبقى الجاحظ في ثقافتنا مثلاً حياً على توظيف الكتاب بوصفه عقلاً تفاعلياً، وفي توظيف الشعبي بوصفه روحًا ثقافية في تزاوج فعال وإيجابي حتى وإن دفع المرء ثمناً غالياً لذلك.

في خدمة الكتاب

إنها المتعة فاتنة أن تجلس بين الكتب تراها في صور وأحجام وأشكال وألوان وتطل عليك كعوبها بين الرفوف وتحس أنها تتكلم معك وتنتظر إليك وتستجيب لهوا جسك، وفي حياتي تعلمت هذه المتعة ومارستها وما مر يوم إلا وجلست في مكتبتي أتأمل وأسرح النظر بين الكتب وقد تطول الجلسة وأنا أترك نفسي مناسبة تقودها النظرات يعمها الصمت العميق والممتد عبر القرون بين الشعراء والكتاب وبين اللغات، ويمر الوقت في هذه الرحلة الخيالية وكأنني وسط نسائم التاريخ وهمسات الزمن، وأنا واحد من هؤلاء القابعين وسط الصفحات آخذ وأعطي معهم.

تلك جلسة يومية تعودت نفسي عليها، وعرفتني بها كل مكتبة

عشت بها، وكم أعطتني هذه من سلوة وعزاء، وكنت في أدنبرة في
أسكتلندا وفي إكستر في جنوب غرب بريطانيا أجد بين الكتب راحة
وحضناً يحتويني ويستل همومي بين الدرس البحثي الشائك
والخوف من المصير المجهول أمام مهمتي الدراسية، وكان أقسى
ما يمر بنا حين الدرس هناك هو أن نفشل في دراستنا، وكنا نعرف
أشخاصاً من بعض العرب ممن انتهت سنوات عنائهم إلى فشل
ذريع، ونسمع عن ذلك الذي رفضت الجامعة أطروحته وعن الآخر
الذي أوصى المشرف بفصله، وعن ذاك الذي أعطوه الماجستير
بدلاً عن الدكتوراه وكان ذلك في لحظة المناقشة التي كان يتطلع
إلى أن تكون خاتمة التعب. ومن الممكن أن تظل تدرس وتبحث
ثمانية سنوات أو أكثر وأنت مسجل على الدكتوراه رسمياً، وبعد
هذه السنوات العجاف يأتي يوم المناقشة وفيه يجري ما يجري
إذ قد يقرر المناقشون تقليل شهادتك إلى الماجستير إذا رأوا
أن عملك لا يرقى إلى الدكتوراه، وقد يفرضون عليك إعادة كتابة
الرسالة بمهلة أشهر أو أكثر، وقد يقررون رفض العمل كله، ومع
السلامة... وقد صارت هذه كلها وكانت هذه تنتصب أمام أعيننا
على مدى سنيننا كلها، وكان النظام في بريطانيا قاسياً وغير رحيم
ولا مجامل، ولعله قد تخفف من كثير من سطوته السابقة الآن.
تلك هموم كانت تصاحب كل باحث هنا وكان أمري مثل أمر
زملي في ذلك الخوف والتوجس الدائم على مدى سنوات البعثة،

وهذا الرعب المصاحب لم يكن له من سلوة غير جلسات التأمل العميق بين الكتب وبين رفوف المكتبة، وأ كنت في صحبة الأوائل ترى كلماتهم على أغلفة الكتب وتسمع أنفاسهم وكأنها تهدد على قلبك وتعطيك السكينة في غريبتك وفي وحدتك مع مصيرك المعلق في الغيب.

للكتب فضل على ليس في تثقيفي - فحسب - وإنما أيضاً في جلب السعادة إلى قلبي حيث صار منظراً يمثل في روضة غناء ومتعة مستديمة.

ولهذا فإنني أشعر أن معرض الكتاب وقد استقر موعده ومكانه في الرياض قد أصبح بالنسبة لي أسبوعاً من الربيع المزهر، وصار من ديدني أن أذهب في أوقات الضحى خاصة، وفي بعض الأماسي في ترددات متكررة كي أضع نفسي في ضيافة الكتب وبين أنفاس الورق وصفحات الكلمات، وكلما مر بي شخص وسلم علي أحس أنني وإياه في جنة من جنات الدنيا البهية، ولذا فقد صارت قصص المعرض وأحداثه ذات وقع خاص عندي، ومنها قستان أراهما من أصدق القصص على صدقة الكتاب.

واحدة منهما تخص الصديق الأستاذ محمد المحسن وقد رأيت منه ما جعلني أشعر بالغيرة من رجل ظهر حبه للكتاب بأكبر مما عندي، وقد تفتق ذهنه عن أمر لم يخطر في على بال، وهذا الأمر يتعلق بحركة البيع عند الناشرين، وكان السؤال الذي نشأ في نفس

محمد هو: ماذالو أن المشتري رغب في كتاب قيمته عشرة ريالات ثم قدم ورقة من فئة الخمسينية، واكتشف أن الناشر لا يملك ما يرد به فارق المبلغ...؟ وهذا أمر يتكرر فعلاً ولو استمر لتعطلت به المبيعات وانتفى معه معنى المعرض.

لقد صار من ديدن محمد أنه تبرع بوقته وجهده وصار يدور على بنوك الرياض ويصرف منهم مبالغ كبيرة من فئة العشرة ريالات، ثم يأتي بها في كيس يتأبشه، ويشرع في توزيعها على الناشرين، خمسة آلاف لهذا وتلاته لذاك وأربعة للثالث، وهكذا دواليك في جولة يومية تكررت أمامي، حتى إنني صرت أرقب لحظة دخول محمد إلى القاعة والكيس بيده والابتسامة تعم وجهه، ثم أنظر إليه وهو يربت على كتف بسام كردي، صاحب المركز الثقافي وأنا جالس عنده، ويدس في يده خمسة آلاف من فئة العشرة، وكنت أرى بسام وهو يتسم حتى صار بساماً فعلاً، ويلتفت إلي ويقول: لولا هذه لتعطلنا عن العمل، وينصرف محمد المحسن وعيوني تتبعه لأراه يمد مبلغاً آخر من كيسه إلى ناشر آخر، وهكذا يتحرك السوق وتتحرك الكتب ولا أحد يعلم أن وراء هذه الحركة رجل له من الذكاء والمرؤة ما جعله يعرف الحاجة الماسة لهذا العمل دون أن يقال له ذلك، ولقد أمسكت به مرة كي أشكره على العمل الراقي والذكي وقلت له ليتنى كنت بمثيل حسك هذا، وكيف بي لم أدرك هذه الحاجة وأنا جليس الكتب وصديق المعرض، وراح محمد

يروي لي كم يلاقي من العنت مع البنوك حيث لا يجد عندهم مرونة في التجاوب مع صرف كميات كبيرة من العشرات، ويدخرونها لعملاء لهم من تجار السوق العام، وقال لي إنه ينتقل من بنك إلى بنك يومياً لكي يحصل على مبالغ تكفي لتغطية حاجة عدد من الناشرين، ولم يكل ولم يمل ولم يتناقل العمل هذا قط، وهو عمل تطوعي وفيه ذوق رفيع في النباهة والمروءة.

أما المنظر الثاني فهو سليمان الوايلي، هذا الرجل الفذ في صداقته للكتاب وأنت تراه يدور كأنما هو صقر يقتنص الكتب ويعرف ما يحسن صيده ويميزه عن غيره، وفي كل معرض من معارض الكتب العربية في كافة عواصم العرب ترى سليمان وهو يقتنص اللحظة ويقتنص الكتب، ثم يجمعها لنا من كل مكان ويقدمها معروضة لمبتعديها، ويعلم الله كم صرت أنا أتجنب ذكر اسم أي كتاب على مسمع سليمان، لأنني أعرف أنه سيدخل في دوامة لا يبالي معها بأي مشقة إلى أن يأتي بالكتاب، ولقد صرت أشدق عليه حتى لا أريد أن أتعبه بمزيد على تعبه، إنه يتعب لكي نرتاح حتى صارت مكتبه بمثابة المعرض الدائم لأجد الكتب ولأندر الكتب.

وهكذا يأتي محمد سليمان كمثالين على خدمة الكتاب وكمظهرين من مظاهر معرض الكتاب حيث تتحرك الثقافة بفعل رجال صارت الكتب همأ لهم ومعنى من معاني العمل عندهم. مما مثلان حاضران ويكملان تاريخاً عميقاً من ذاكرة كل واحد

منا عن رجال خدموا الكتب وخدموا الثقافة بمحبة وإخلاص، وما من مدينة أو قرية إلا وتجد فيها أمثلة على هذا الصنف العجيب من البشر.

ملحق

لوحات ديريدا والتمرکز المنطقی

- 1 -

كانت اللحظة مثيرة حقاً وذلك هو اليوم الذي انتظره الكثيرون لكي يستمعوا إلى جاك ديريدا يلقي محاضرة في آرفائن في كاليفورنيا، و كنت أGBT صديقي وهو يحدثني عن تلك اللحظة، وهو صديق أمريكي أعرفه منذ سنوات وأعرف متابعته لديريدا، و كنت أتوقع منه أن يحدثني عن انطباعاته الفكرية عن المحاضرة، ولكنه انشغل وأشغلي معه في الحديث عن لغة ديريدا الإنجليزية، وكيف أنه قدم منظراً طريفاً في علاقته مع هذه اللغة، لقد كانت إنجليزية ديريدا ضعيفة جداً، ولم يشقق ديريدا على نفسه من معاناة الحديث بلغة لا تقاد له بسهولة بداعاً من نطقه لها، وهو نطق تتحكم فيه اللهجة ويبدو عليه التعسف حتى كأنه يستل الكلمات من بطن معجم إنجليزي / فرنسي، ثم إن الكلمات لا تسعفه في كل الوقت فيجد لسانه يعطي الكلمة الفرنسية، وفي بعض الأحيان يستعين برفقاء له لكي يزودوه بالكلمات الإنجليزية التي ظلت تتمرد على تذكره، ويسألهم كل لحظة وأخرى عن المقابل لهذه الكلمة أو تلك.

لقد انشغل صاحبي وانشغلت معه حول هذا المنظر، وتمنيت أن لو كنت

هناك لكي أرى الحالة أمامي، وهي حالة فعلاً ستأخذك من الأفكار إلى الطريقة التي نعبر بها عن أفكارنا، ولقد أحسست أن ديريدا قد تعمد أن يضع نفسه وجمهوره في هذه التجربة اللغوية الفريدة، حيث سترى فيلسوف اللغة الدائم الصيت وهو يعاني من اللغة نفسها، ويعاني من الربط ما بين لغتين، وقد عانى من قبل بين الربط بين اللغو والمعنى وشغلته لعبة الربط هذه، ومنها بني فلسفته كلها، وهو في تلك المحاضرة كان يمتحن لعبة المعاني ويضع نفسه نموذجاً لها، وأظنه قد أحسن صنعاً إذ فعل ذلك، ولقد كان في مقدوره أن يتكلم بالفرنسية، وفي جمهوره عدد غير قليل ممن يفهم الفرنسية، وقد فعلها غيره من قبله، وكان هناك ترجمة لم لا يعرف الفرنسية، غير أن ديريدا آثر أن يعاني الفعل اللغوي وأن يضع نفسه في لحظة الافتراق (الاختلاف) ما بين لغتين، يعرف إداهاماً معرفة جيدة بينما يقف على تخوم الثانية ويأمل في اقتحامها مستعيناً ببعض ما يتذكر وببعض صحبه ومراهناً على قدرة سامييه على ترميم شقوق الكلام وردع هوة المعاني (أي معاني...!!).

- 2 -

هل لديريدا أن يتخلى عن اسمه...؟
الاسم معنى وإذا تكون الاسم بصفته معنى فإنه ينتكس على صاحبه بمغبة هذه المعاني، وهذا ما حدث مع جاك ديريدا حينما

نشأت فكرة تكريمه في جامعة كمبريدج في بريطانيا، وكانت الفكرة بأن تمنح الجامعة شهادة الدكتوراه الفخرية له، وهنا جاء السؤال: من هو (أو ما هو) جاك ديريدا، والجواب سيحدد السبب في منحه الدكتوراه الفخرية.

العجب هنا أن للجامعة سجلًا طويلاً في المنح التكريمية في الدكتوراه، وفي السجل أسماء كثيرة بعضها لتجار ول العسكريين، مثلما أن بعضها لعلماء ومفكرين، ولم يحدث في تاريخ الجامعة قط أن صار الاسم معضلة، ولم يحدث أن سُئل سائل في الجامعة عن اسم شخصية مكرمة، وكيف تكرم من تتساءل عن اسمه...؟. ولكن اسم جاك ديريدا جاء ليكون معضلة إدارية وأكاديمية، ولذا رفض قسم الفلسفة في الجامعة تبني الترشيح بحجة أن ديريدا ليس فيلسوفاً وأنه باحث لغوي واقتربوا إحالة الموضوع إلى قسم اللغويات لدعم الترشيح، ولكن هذا القسم رد الموضوع مبرراً موقفه بأن الرجل ليس لغويًا ولا أنسانياً، وهنا بدأت مغبات المعنى تطارد الاسم وتحاصره، وهل هو اسم قابل للتحديد وهل المعنى هنا متفق عليه أم هو أحد صور المفارقة والاختلاف....؟؟ لقد وقع فيلسوف الاختلاف في مغبة اختلافه، ووقع في مصيدة التمرکز المنطقي، حيث لا يتطابق مع حدود وأعراف المؤسسة، وهذا الذي كشف النسقية الثقافية في التمرکز المنطقي، وكشف سلطة المعنى ووهميته في آن، هاهو في جامعة كمبريدج العربية

والعتيدة يقع تحت مطرقة المركزية المنطقية ومطرقة المعنى الواحد والنسق المحدد.

احتاجت الجامعة إلى طرح موضوع منح ديريدا شهادة الدكتوراه الفخرية للتصويت، وفازت الفكرة بفارق صوت واحد، وهذا أمر يحدث لأول مرة في تاريخ الجامعة ذات الثمانية قرون، ولأول مرة يجري بحث أمر كهذا في مجلس الجامعة بدلاً من تبنيه من أحد الأقسام المتخصصة، ولكن لا أحد في الدكاكين الأكاديمية يستطيع تجرع اسم ديريدا ولقد غصت به الحلوق حتى لم يجد من ينسبه إليه أو يننسب له.

إنه فيلسوف الاختلاف، وهو صاحب اللغة المختلفة، وسيقول بعض الناس إنه عظيم لم يجد التاريخ بمثله من قبل، وسيقول آخرون إنه مهرج، وفكره ليس فلسفه وليس لغة، فماذا هو إذن....؟

- 3 -

يكمn إشكال ديريدا مع نفسه ومع مشروعه (ولم أقل مع فكره لكيلا أقع في المحذور المعرفي هنا) يكمn الإشكال في كون ديريدا يبدأ نظرته للأشياء عبر رفض المعنى المؤسساتي، ولكن كل معنى في الكون هو معنى مؤسساتي بالضرورة، ومن هنا صار ديريدا ضد المؤسسة صانعة المعاني، ولم يكن غريباً على كمبريدج أن تتوجس

منه، لأنها فهمت فكرته على وجهها العميق، وهل ستمنح شك التميز لرجل يلغيك ويسألك منجزك الفلسفى كله...؟.

إنه يلغيك وكفى، ولكي تبقى لا بد أن تلغى من ألغاك. هذه هي لغة السياسة وهي لغة الاقتصاد، وسنقول إنها لغة الثقافة أيضاً، وتاريخ الفكر كله يشهد على ذلك.

لا شك أن من يقرأ هذا الكلام سيتوقع من ديريدا أن يرفض الدكتوراه الفخرية من كمبريدج لأنها شهادة المركبة المنطقية وشهادة في المعنى المؤسساتي غير الاختلافى، ولقد رفض سارتر من قبل جائزة نوبل بعد أن منحت له، لأنه كان مؤمناً بفكرة اليساري المعادى للرأسمالية بكل صيغها. ولكن ديريدا قبل الشهادة وغض الطرف عن صراعات الجامعة حوله.

هل يقول لنا هذا إن فيلسوف الاختلاف جنح للسلام والمهادنة المؤسساتية ونظر إلى الأمر وكأنه يحمل مصلحة شخصية، وبرره بأن ما جرى هو إدانة للمؤسسة وكشف لها، وأن أي اعتراف من الجامعة بفيلسوف الاختلاف هو تفكيك لها لأنها قبلت بنقيضها ومقوضها...؟!

لا أعرف ردة فعل ديريدا على الأمر ولكنني أتصور أن تأويل ما حدث يأخذني لهذه الأبعاد...!.

من المشهود عليه في تاريخ الثقافة أن المرء لا يرى عيوبه، حتى وإن كان فيلسوف العيوب وكاشف عيوب اللغة والمنطق. ولا شك

أن ديريدا قد وقع في لحن ثقافي حينما خضع للعبة المؤسسة ورضي بورقة تشهد له بنقيض ذاته، وهي شهادة فخرية ربما يجدها ورثة ديريدا معلقة في جدار مكتبه وعليها خاتم الجامعة. وهنا يشاهد التاريخ بأن رجل الاختلاف قد تم تعيمده وتمت مأسسته بمؤامرة ماكرة من المؤسسة وتمرير من الرجل ضد مشروعه حتى صار أحد المعاني ولم يبق كأحد الاختلافات.

لقد روي عن أحد الوعاظ أنه قال لأنباءه اتعظوا بقولي ولا تنتظروا إلى عملي، وذلك حينما أحرجه بعضهم وسأله: كيف به يعمل خلاف ما يقول ويرتكب بعض الآثام في حين ينهى الناس عنها.

هل نقول إن ديريدا وقع بشيء من هذا أيضاً، وهل لنا أن نقول إننا نختلف عن هذا وذاك حينما ننتقد تصرفات المخالفين مع أنفسهم، ألسنا نحن مثلهم وأننا لا نرى عيوبنا مثلهم...؟!

الملحوظ أن الثقافة -أي ثقافة- تصطعن أنساقها الخاصة على مر العصور، وأننا نحن كصنائع ثقافية نعيش في حال مزدوجة من الوعي الثقافي والعمى الثقافي معاً، حيث نستطيع أن نحصل على درجة من الوعي الفكري والفلسفـي حتى لنرى عيوب الثقافة ونمتلك الجرأة المعنوية على كشفها وفضحها، ولكننا في الوقت ذاته نخضع لشيء من العمى الثقافي يصاحب الوعي ويختبئ من تحته ويلف عليه، وهذا العمى الثقافي يجعلنا كائنات بشرية

مسخة ومصطنعة في الوقت الذي نحن فيه مفكرون وناقدون ومنفتحون، وسنقول الشيء ونقايضه وسنفعل ضد مع الضد. وسنرى المرء ديمقراطياً ودكتاتورياً في آن وإنسانياً واستبدادياً في آن.

هذا درس أليم في سيرة البشر نتعلم له لكي نعرف أن طريق الكشف البشري طويل جداً، وطريق المعرفة هو نفسه طريق الآلام، وحربنا مع الأنساق هي حرب عويصة، وكل نقد نوجهه للنسق لا بد أننا نحن -نقاد النسق- قد وقعنا أو سنقع فيه، أو في الأقل هو موعد يتربص بنا، وسيهزمنا في لحظة ما.

خبايا الحداثة (حداثات...؟؟)

(أني لاستحي من الله أن أخشى معه أحداً)

إسماعيل الأشدق

من حق الإخوة في قناعة (دليل) أن أقول إنني سعدت بلقائي
عندهم، يوم الجمعة ما قبل الماضي، وما مقالاتي اليوم إلا امتداد
لذلك اللقاء السعيد حقاً، وحينما تداخل الشيخ عوض القرني قال
كلاماً كثيراً من بينه أنه طلب مني كشف خبايا الحداثة مما أعلمه
ولا يعلمه -حسب عبارته- والحق أنني كنت كحال من قال عنه
المتنبي: إذا حسن فعل المرء حسنت ظنونه (طبعاً المتنبي قالها
حسب قانون دلالة التضاد، فإذا قال: إذا ساء فعل المرء ساءت
ظنونه فهو يقول أيضاً: وإذا حسن الفعل حسن الظن، وهذا هو
مقتضى دلالة التضاد)، وكنت لحظتها قد ظننت أن الشيخ ينديني
إلى نقد خطاب الحداثة، وكانت إجابتي بالإحالة إلى بحثي في نقد
الحداثة العربية بوصفها حداثة رجعية والمثال على هذه الرجعية
هو أدونيس، وكانت أظنني قد أعطيت صورة عن الجواب الذي مال
ظني إليه. وانتهى أمري عند هذا الحد. غير أن اللوم صار يتواتر
علي من ذلك اليوم وما بعده، وقال لي الكثيرون إن الشيخ كان يقصد
منك فضح الحداثة والحداثيين وكشف الخبايا، أي الاعتراف عليهم
والتشهير بهم، وما كنت أظن بالشيخ هذا الظن، غير أنني وعدت

بعضهم بالاستماع إلى الحلقة مرة أخرى للتأكد من وجاهة ما ذهبوا إليه، وهذا ما حدث فعلاً بعد سماعي للتسجيل، إذ تبين لي أن الشيخ يعتقد أن الحادثة تنظيم خطير له خبايا وينطوي على خطر جسيم، وتبعاً لهذا الظن فإن الشيخ يريد مني أن أعمل له كمحبر سري أو كعميل سابق يكشف أسرار العصابة.

كم والله أود لو أن الشيخ لم ينزلق إلى هذا المزلق الذي ما كنت أتصور قط أن خلقه الكريم سيسمح له به، وأنا أراه رجل مروءة وتقوى، ومن كانت هذه صفتة فإنه لن يحرر أخيه إلى حد أن يطلب منه أن يكون مخبراً سرياً أو أن يكون عميلاً سابقاً تحسن دعوته لكشف الفضائح.

هذه مسألة شخصية تتعلق بنظام التعامل بين البشر وعلاقة ذلك بالظن الظاهر والمرءة وحسن التعبير، والكلمة الطيبة صدقة - كما قال رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام - وأنا لن أطيل ملامة أخيها الشيخ وأتركه مسؤلته في ذلك.

لكن الأمر الأهم والأخطر هو أن نتكلّم بعقل وصدق وأمانة عن قضية لا يصح أبداً أن نتهاون بها، وهي: هل الحادثة تنظيم سري يقوم على خطط خطيرة، ويجب حينئذ فضحها وكشف خبایاها...؟؟

هذا هو منطق الشيخ و كنت أظنه قد وعي لغلطته القديمة في كتاب (الحادثة في ميزان الإسلام)، وهو كتاب في التوهّم والظنون

أكثر مما هو موعظة حسنة، وخطايا الكتاب كبيرة وفادحة، ومن أهمها هذا التصور عن تنظيم مزعوم، ويبدو أن الشيخ ما زال يعتقد ذلك ويبحث عن من يساعده على تأكيد هذا الافتراض.

وأبدأ بأربع مقولات هي:

1 - الحداثة حداثات

2 - الحداثة ليست تنظيماً

3 - الحداثة ليست خطراً

4 - لقد انتهت مرحلة الحداثة ونحن الآن في زمن (ما بعد الحداثة).

وللتفصيل أقول -أولاً: الحداثة حداثات، ولكل حداثي تعريفه الخاص، وبقدر ما هناك من حداثيين فإننا سنجد عدداً مماثلاً من التعريفات والتوجهات، ولو أخذت بودلير كمثال لوجدت أن حداثته حداثة جذرية/راديكالية تقطع مع الماضي بكل صيغه، وفي مقابلة إليوت الذي اعتمد أهم ما في الماضي وهو الدين واللغة الكلاسيكية -حسب تعريفه للكلاسيكية-، وعاد جسدياً من أمريكا إلى بريطانيا كتعبير رمزي وحسي على مفهوم الأصل، وللحقيقة فإن أدونيس يقول إن القرآن والحديث النبوى أصلان ويضع الحداثة بصفتها أصلاً من الأصول (انظر بحثي: ما بعد الأدونيسية، في كتابي: تأنيث القصيدة والقارئ المختلف). كما أن أدونيس كتب عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وهو الآن يصف كتابه عن الشيخ بأنه الجزء الرابع من مشروعه حول الثابت والمتتحول، ولي أن أقول إن الشيخ

عوض لم يشر قط إلى هذه المعلومات عن أدونيس، ولن أجنب لسوء الطن فأقول إنه حجبها متعمداً أو أنه خشي أن تفسد عليه كشفه للسلبيات فقط، وإنما أقول ما أراه ملاحظة منهجية، وهي أن الشيخ لا يعرف بهذه المعلومات لأنه ليس من أهل هذا الحقل وليس له باع فيه فغاب عنه الكثير والكثير من هذا ومن غيره.

وعوداً إلى موضوعنا أقول إنه من الطريق أن السباب كان يصف إليوت بالرجعي العظيم، ولم يكن هذا موقفاً ضد رأيه في الدين ولكنه موقف من الرأسمالية الغربية، وتبني السباب الشاعرة إديث سيتول كبديل عن إليوت تجنبًا للاحقة رفاقه من الماركسيين الذين يشنعون على إليوت حينها، والشاعرة إديث سيتول هي صاحبة النصوص الدينية والأسطورية العريقة حتى لتكاد نصوصها تكون صيغة من كتب الدين، وكأنها كتاب دين حديث، وعند السباب بعد ديني واضح، وأشد منه نازك الملائكة، وأنت هنا بين بودلير من طرف وإليوت من طرف آخر، وبينهما تنويعات لا تحصى. وهنا أقول إننا أمام حداثات وليس حداثة واحدة، وهذا شرط معرفي ومنهجي لا يصح أي حديث عن الحداثة دون الأخذ به، ومن هنا كان مدخلي على الشيخ عوض ووصفني له بأنه يجهل الحداثة لأنه لا يعي بهذا الشرط المعرفي/المنهجي، ويفضي به هذا النقص إلى إصدار أحكام خاطئة لا تصح عند ذوي المعرفة.

ثانياً: الحداثة ليست تنظيماً، لأن من شرط التنظيم أن يتواطأ

أصحابه على بيان متفق عليه وعلى ولاء لهذا البيان المفترض، وعلى رضا بزعامة وقيادة تؤسس لعصبة بين الأفراد، ووالله إن ما بين الحداثيين من نزاع وتنافس وتصارع ليتفوق أي نزاع مر على في التاريخ كله، ولقد كنت قلت في رسالة لي إلى أحد زملائنا قبل ربع قرن: وسوى الروم خلف ظهرك روم، ومغزاها أن السهام تأتينا من كل الاتجاهات، وكنت حينها -وما زلت- ألاقي من الحداثيين مثل ما ألاقيه من غيرهم، ونحن نعرف مأساة السباب وعذابه بالسجن واللاحقة والتشريد والتربص من قوم سيسميهم الشيخ بعصبة الحداثيين، ولا يسلم حتى من تطلق عليه صفة زعيم الحداثيين وقد وصفني الصديق رضا لاري بهذه الصفة، مثلاً تبرع لي صاحب شريط الحادثة بصفات أخرى ابتكرها من معجمه الخاص، وفي مقابل هذه الصفات لم أجده جيشاً ينتظر أوامرني، ولم أكن أريد ذلك، وليس هذا في نظامي الفكري أو الخلقي، كما أنه ليس في نطاق الممكن أو المنصور أصلاً، حسب واقع الحال.

وللخلافات تاريخ طويل أشهره ما جرى للشكلاينيين الروس حيث تم سحقهم وتصفيتهم في روسيا الشيوعية وبعضهم عذب حتى بترت ساقه ومنهم من نفي إلى سيبيريا، وأجبر بعضهم على الظهور على التلفزيون لإدانة أنفسهم وإعلان براءتهم من الممارسة الألسنية والنقد الشكلاني، وفي فرنسا جرت صراعات عنيفة بين البنويين والماركسيين، وكانت الماركسية بعامة ترى أن

مدارس النقد الألسيني خطر عليها، وامتدت آثار هذا الصراع عربياً وإن كان اليسار العربي أقل قوّة منه في موسكو وفرنسا، ولذا كان الصراع على مقدار طاقتهم وجرت ممانعة مضادة للبنيوية والنقد الألسيني، ومقالاتي عن أستاذنا المرحوم محمود أمين العالم تعطي مثالاً لذلك (انظر كتابي: الموقف من الحادثة)، ومحلياً بلغت الخصومات حداً وصفني به أحدهم بالخيانة الوطنية، وكان قد ابتدأ بوصفي بالخيانة الثقافية ثم أطبقها بالقول بالخيانة الوطنية، وهو شخص كان يرى نفسه حينها من أتباع أولئك. وقد أبلغني أحد الإخوة من الشرقية أن مؤامرة كانت تحاك ضدّي، وقال هذا الشخص إنه منع حدوث ذلك واقتصر عليهم التعقل والتريث، وقد رويت هذا في كتابي حكاية الحادثة.

والحرب علينا عشرة الألسينيين كانت شرسّة على مستوى الأشخاص وعلى مستوى المذاابر، وكانت مقوله وسوى الروم خلف ظهرك روم هي أصدق وصف للحال. وهذا شاهد على أنك لست أمام جبهة واحدة متواطئة على أي شيء فيما بينها، ولقد تراوح التصريح ما بين قمع دموي في روسيا وصراع لفظي هائج في فرنسا وممانعة عربية.

ثالثاً: إذا قلنا إن الحادثة حادثات وتبعاً لذلك فإنها لا يمكن عملياً ومنهجياً أن تكون تنظيمياً تبعاً لتنوعها من جهة وتصارعها من جهة أخرى، فإننا سنقول بالضرورة المنطقية إنها ليست خطاً

داهماً أو متربصاً، وكيف يأتي خطر -أي خطر- من قوم تنوعوا حتى في طريقة استخدامهم للمفردات، ومارسوا الاختلاف عليناً وتعددت مشاربهم وهمومهم وغاياتهم، وظلوا يعلنون ذلك ويجاهرون به، حتى لم تبقَ مجلة أو مطبوعة عربية من المغرب إلى البحرين إلا وكان هذا من أبرز أبوابها وأصواتها على مدى ستين عاماً -وتحديدي هنا مبني على لحظة ظهور السباب ونذاك في عام 1948، وليس 1947، كما أشرت في دراستي من قبل.-

الحداثة تيار وليس مذهبًا ولا طريقة ولا مدرسة، إنها حالة ثقافية تنوعت في أوربا فلسفياً وسياسياً واقتصادياً ما بين نظم ليبرالية رأسمالية، وما بين نظم اشتراكية جذرية أو ديموقراطية، بينما انحسرت عربياً في الإبداع الشعري وانغلقت فيه، وبه كانت الحداثة العربية حادثة جزئية، ولم تلامس الأطر الاجتماعية والتكنولوجية والسياسية، وظللت هذه الأطر تراوح ما بين الاضطرار الواقعي والتحفظ الذهني، ولم يصحبها جهد فكري أو إبداعي -كما حدث في مجال الصيغ الشعرية والنظريات النقدية- وصارت الفجوة بين الخطابات فيما بين حادثة أدبية، وما بين خطابات أخرى لا تعي ما كان يجري في عالم الأدب والإبداع، وكانتنا كنا نحاول الدخول في ماراتون عالمي ولكن بقدم واحدة. هذا عيب حداثتنا العربية، ولقد قال بذلك أناس كثر من مثل إحسان عباس وأدونيس، ولقد استفضت في ذلك في الفصل السابع من كتابي (النقد الثقافي).

رابعاً: مرحلة ما بعد الحداثة، نحن الآن في مرحلة ما بعد الحداثة، وهي مرحلة تقوم على نقد الحداثة بداية و تستدرك عليها أخطاءها، والمقام هنا لا يتسع لي لسرد هذه الملاحظات، ولكنني أحيل الراغب في الاستزادة إلى الفصل الأول من كتابي (النقد الثقافي) وهو موجود على موقعي في الإنترت، مع سائر كتبه، وفيه تفصيل كاشف هناك.

غير أنني أقول هنا إن أي حديث اليوم عن الحداثة هو حديث عن التاريخ، والحركة قد دخلت الآن في كتاب تاريخ الأدب وتاريخ الأفكار. وقلت من قبل إن الحداثة قد أصبحت طبخة بائنة، وهذا أمر له نقاشه الخاص، وفيه جدل غير قليل في فرنسا وألمانيا، ولكن ما يهمني هنا هو أن أحسم أمراً أخلاقياً ومنهجياً يتعلق بالتوهم بأن للحداثة خبايا وقصصاً مثيرة كقصص العصابات والمهربيين والمخربين، وأننا نحتاج إلى رجل تائب كي يكشف لنا المؤامرات!!!!!!

هذا وهم وخداع للذات وخداع للآخرين ومظنة للإثم والتأثيم، وما زلت أقول إنني تعاملت مع سؤال الشيخ عوض من باب: إذا حسن فعل المرء حسنت ظنونه، ولذا كان تصوري هو أنني حسبة يطلب مني ممارسة دوري كناقد فأعمل نقداً للذات وللخطاب، بوصف ذلك عملاً علمياً منهجياً شريفاً وفيه مروءة وخلق كريم وفيه صدق مع النفس ومع الناس، أما غير ذلك فلم يخطر ببالي في يوم الجمعة شريفة كنا معاً قد خرجنا من مساجدنا متعبدين ومبشرين ومهللين ولذا صح لي أن أحسن الظن.

ولعلي هنا قد بلغت العذر من الإخوة الذين لاموني ولعلي قد أوضحت حالي الذهنية وقت استقبال مداخلة الشيخ. وإنني لم أكن سأسيء الظن بشيخ يتصدى لحث الناس على التقوى وتجنب الظن الأثم. وهذا هو سبب تعاطي مع سؤال الشيخ لحظتها تعاملًا علميًّا، ولم يخطر بي قط أن الشيخ يقصد غير ذلك، ولكن توالي الملامة علي دفعني إلى مراجعة الحالة فتبين لي أنني كنت ساذجًا فعلاً ويريناً إلى حد الشفقة، وهذا ما صار.

وإن كنت صرت مقالتي بأربع مقولات فإني أختتمها بأربع
أيضاً، وهي:

1- ليس لدى ما أخفى.

2- ليس لدي ما أخاف منه (سوى مراعاتي لحق الله علی).

- ليس لدى ما أغمغم حوله.

٤- لست من أصحاب نصف الحقيقة ولا نصف الجواب ولا نصف وقف - وكفى.

* فيما يتعلّق بكتبي التي أحلت إليها في المقال أرجو العودة إلى موقعي في الإنترنّت (www.alghathami.com) والكتب كلها هناك.